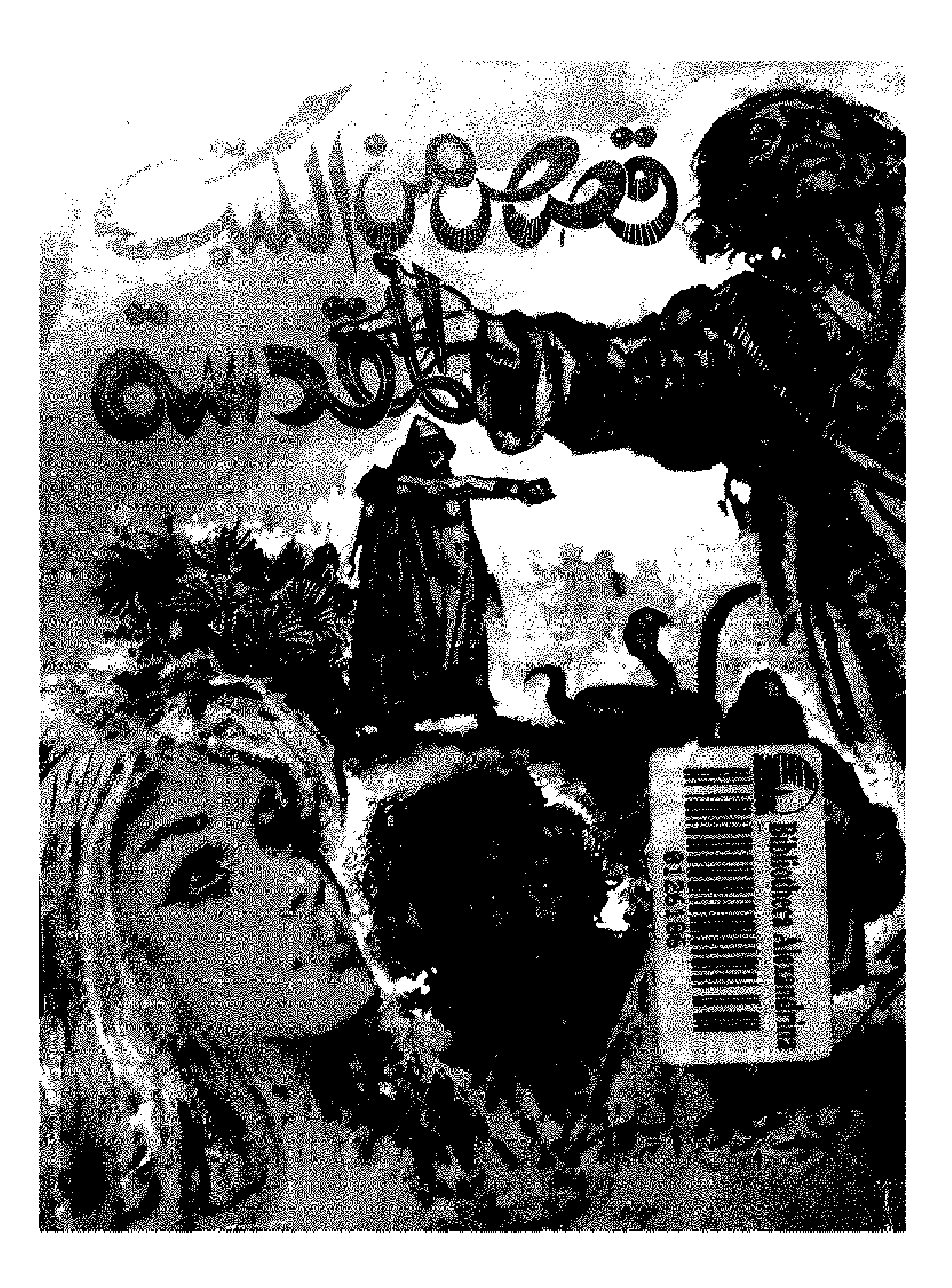

قصص من
Bibliotheca Alexandrina

مطبوعات مكتبة مصر

قصص من الكتب المقدسة

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

خطيئـــة ودم

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم) .

« قرآن كريم »

كان كل شيء فضاء ، فلا هواء ولا ماء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا ضياء ، وكان الرحمن ما فوقه هواء ، وما تحته هواء ، وأراد ان يخلق الكون فخلق الريح ، ثم خلق الماء على متن الريح ، ثم خلق عرشه على الماء ، وسما الدخان على الماء فسمى سماء ، واستوى الرحمن الى السماء وهي دخان ، ثم رفع سمكها فسواها ، ثم فتقها ، فجعلها سبع سموات ، ثم خلق الأرض فكانت رتقا ، لا ليل ولا نهار ، ثم خلق الليل فكان الكون ظلاما في ظلام ، ثم قال للسماء :

— اطلعي شمسي وقمري ونجومي .

فبزغت الشمس في رقعة السماء ، وطلع القمر وتلألأت النجوم الآلاء ، ثم محا آية الليـــل ، فبقي النور وذهب الضياء ، وجعل آية النهار مبصرة ، وقدر للكواكب منازلها ، فراحت كل تجري لمستقر لها ، وهجم على الليل النهار ، فبدد ضياؤه الظلام ، ثم دحا الارض فانبسطت رقعتها ، ثم قال لها شققي انهارك ، واخرجي ثمارك .

فتدفقت الانهار ، وأنبتت الأرض عشبا وبقلا وشجرا ، ثم ارسى الجبال ، ثم خلق الطير والزواحف والدواب ، فراح الطير يرفرف بأجنحته في السماء ، وأخذت الزواحف تزحف على بطونها ، وجعلت الدواب تدب على الأرض الفضاء .

خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام وما مسه

من لغوب ، ثم استوى على عرشه تحف به ملائكته تسبح بحمده ، وتقدس له ، وراح الليل يطلب النهار حثيثا ، فغشى الليل النهار ، وباتت الدنيا فى ظلام ، ولما أشرف نور الصبح قال الله لملائكته :

— إنى جاعل فى الأرض خليفة .

فقالت الملائكة :

— اتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك !

فقال لهم :

— إنى اعلم ما لا تعلمون .

وقبض الله قبضة من جميع الأرض ، فكان فيها الأبيض والأسود والأحمر ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، ثم بلت القبضة حتى صارت طينا لازبا ، ثم صور الله الانسان ، فكان جسدا من طين ، ثم ترك حتى صار حمأ مسنونا ، وبقى حتى أصبح صلصالا ، فمرت به الملائكة ، ففزعوا منه . وكان ابليس اشدهم فزعا ، فراح يقترب منه ويضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار ، فكان يغمغم !

— لأمر ما خلقت !!

وجعل ابليس يطوف به ، فلما رآه اجوف عرف انه خلق لا يتمالك ، فقال للملائكة فى استخفاف :

— لا ترهبوا هذا ، فان ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكنه .

فقال الملائكة بعضهم لبعض :

— لا يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه .

وبقى جسد البشر مدة ، ثم جاء ربك والملائكة صفا صفا ، ثم قال للملائكته :

ــ إذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين .

فراح ابليس يقيس بين نفسه وذلك الجسد الذى سوى من طين ، فرأى نفسه اشرف منه ، فهو من نار ، واين الطين من النار ؟ وما درى أن فى الطين الرزانة والحلم والنمو ، وفى النار الطيش والخفة والسرعة والاحراق ، فاستكبر وعزم على الا يسجد مع الساجدين .

ونفخ الله فيه من روحه ، فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده الا صار لحما ودما ، وجرت الروح اول ما جرت فى بصره ، فراح ينظر الى جسده ، فأعجبه ما رأى من حسنه ، فذهب لينهض فلم يقدر ، فلما سرت الروح فى بقية جسده ، انتصب واقفا ، وسمى آدم ، لانه من اديم الأرض خلق .

وسجد الملائكة لآدم الا ابليس ، ابى واستكبر وكان من الكافرين فقال الله له :

ــ ما منعك أن تسجد اذ أمرتك .

قال :

ــ انا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين .

قال :

ــ فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج انك من الصاغرين .

قال :

ـ انظرني الى يوم يبعثون .

قال :

ـ انك من المنظرين .

قال : فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد اكثرهم شاكرين .

قال : اخرج منها مذموما مدحورا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ..

وخرج ابليس منها ذليلا ، وقال الله لآدم :

ـ إيت أولئك الملأ من الملائكة ، فقل لهم : السلام عليكم .

فقالوا له : وعليك السلام ورحمة الله .

ورجع آدم الى ربه عز وجل ، فقال الله له :

ـ هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم ..

ـ ٣ ـ

وشاء ربك أن يرى الملائكة انهم ما كانوا صادقين لما قالوا : لا يخلق ربنا خلقا الا كنا اعلم منه ، فجلب من الأرض حيوانات البرية ، وطيور السماء ، ثم عرضها على الملائكة ، فقال :

ـ انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين .

قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم .

قال : يا آدم انبئهم بأسمائهم .

فجعل آدم يذكر اسم كل طير ، وكل زاحفة ، وكل دابة ، فقال الله سبحانه :

ـــ الم أقل لكم ، إني أعلم غيب السموات والأرض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

واسكن آدم الجنة ، فراح يضرب فيها وحيدا ، ثم وفد عليه النوم ، فراح فى سبات عميق . وشاء الله ان يخلق له زوجة له يسكن اليها ، فأخذ ضلعا من اضلاعه من شقه الأيسر ، ولأم مكانها لحما ، وآدم نائم لم يهب من نومته ، وخلق الله من ضلعه امراة ، وجلست المرأة عند رأسه تتطلع اليه ، فلما هب آدم من نومه ، رأى عند رأسه مخلوقة حلوة ، تديم النظر اليه ، فرمقها فى عجب ، وأحس نحوها عطفا وانجذابا ، فسألها فى دهش :

ـــ ما أنت ؟

ـــ امرأة !

ـــ ولم خلقت ؟

ـــ لتسكن إلى !

وراح ينظر اليها من رأسها الى قدمها فى غبطة ونشوة ، واقبلت الملائكة عليهما ، وشاءوا أن يروا مبلغ علمه ، فسألوه :

ـــ ما اسمها يا آدم ؟

ـــ حواء .

ـــ ولم سميت حواء ؟

ـــ لانها خلقت من شيء حي .

وجعل ابليس يجول خارج الجنة ، لا يجرؤ على الدنو منها ، فقال الله لآدم :

ـــ يا آدم ، ان هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من

الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى .

وجعل آدم ينظر الى حواء وقد أحس غبطة ، فلم يعد يمشي في الجنة وحشا ليس له من يؤنسه ، فقد أنعم الله عليه زوجة ، بعض لحمه ودمه ، وراحا يسيران عريانين ، لا يخجلان ، فما كانا يعرفان خيرا ولا شرا ، وقال الله لآدم :

— يا آدم ، اسكن انت وزوجك الجنة . وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين .

ونظرت حواء الى الشجرة التي حرمها الله عليها ، فاذا هي بهجة للعيون ، وفتنة للناظرين ، ثم تحولت عنها ، وراحت وآدم يأكلان من ثمار الأشجار الأخرى ، وعاشا في رغد من العيش ، وسعادة وهناءة .

— ٤ —

طرد ابليس من الجنة ، فعزم على أن يوسوس لآدم وحواء ، وان يزين لهما معصية الله ، فيخرجهما من الجنة ، وحاول أن ينفلت الى الجنة غير مرة ، لينفذ أمنيته ، ولكن خزنة الجنة كانوا يردونه في كل مرة ، فلم ييأس ، وفكر في أن يعرض نفسه على دواب الأرض أيها تحمله حتى يدخل الجنة ، فيكلم آدم وزوجه ، فانطلق وعرض نفسه على الدواب ، فأبت الدواب جميعا ذلك عليه ، فذهب الى الحية ، وكانت كاسية من اجمل الدواب ، تمشي على أربع قوائم ، فكلمها فقال لها :

ـــ امنعك من بنى آدم ، فأنت فى ذمتى ان أنت ادخلتنى الجنة .

فقبلت الحية ما عرض عليها ، فجعلته بين نابين من أنيابها ، ثم دخلت به الجنة ولم يفطن الخزنة الى ذلك . فلما اطمأن ابليس الى أنه أصبح فى الجنة ، خرج من الحية ، وأسرع الى آدم ، وراح يوسوس له :

ـــ يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟

فأعرض آدم عنه ، ولكن ابليس استمر فى وسوسته :

ـــ ما نهاكما ربكما من هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

فلم يصغ آدم اليه ، وفر منه ، فأسرع ابليس خلفه ، وأخذ يقسم :

ـــ والله انى لكما من الناصحين .

فوضع آدم أصبعه فى أذنه ، وأشاح بوجهه عنه ، فارتد ابليس عنه وهو حسير ، وأيقن أنه ليس على اغراء آدم بقدير ، ولكن ما لبث أن رأى حواء تتطلع الى الشجرة المحرمة ، فأسرع اليها وقال لها :

ـــ انظرى الى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها .

فتطلعت حواء اليها فى اشتياق واشتهاء ، ثم مدت يدها اليها وتناولت منها ، وأكلت وأساغت ما أكلت ، فالتفتت الى آدم وقالت :

ـــ يا آدم كل فانى قد أكلت !

ـــ لا ......

ـــ كل ، لقد أكلت ولم تضرنى .

ـــ لا ....

فتركته حواء وقد زوت ما بين حاجبيها ، وانتبــذت مكانا قصيا ، واحس آدم رغبة الى حواء ، فدعاها لحاجته ، فقالت :

ـــ لا ! الا ان تأتى ها هنا !!

فقام آدم ، وسار الى حيث كانت حواء ، وطوقها بذراعيه ، فاشاحت بوجهها عنه ، واظهرت دلالا ، فلم يستطع آدم ان يصبر على دلالها ، فمد يده الى وجهها النافر ، وأداره لتتلاقى عيناه بعينيها ، لعلها ترى ما فى عينيه من حب ، فلما التقت العيون قالت فى اغراء :

ـــ لا ! الا ان تأكل من هذه الشجرة .

فانهارت مقاومة آدم جميعا ، وقام الى الشجرة يتناول منها ويأكل ، فعرف كل شيء ، عرف أنه عريان ، كما عرفت حواء انها عريانة ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، واقبل الرحمن ، فلما رآه آدم ، ذهب هاربا فى الجنة . ناداه ربه :

ـــ يا آدم ، أمنى تفر ؟

ـــ لا يارب ، ولكن حياء منك .

ـــ الم انهكما عن تلكما الشجرة ، واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ؟ ! لم أكلتها وقد نهيتك عنها ؟

فقال آدم :

ـــ يا رب ، أطعمتنى حواء .

فقال لحواء :

ـــ انت التى غررت عبدى ، فانك لا تحملين حملا إلا حملته كرها ، فاذا اردت أن تضعى ما فى بطنك اشرفت على المــوت مرارا .

وقال للحية :

ـــ انت التى دخل الملعون فى بطنك حتى غر عبدى ، ملعونة انت حتى تتحول قوائمك فى بطنك ، ولا يكن لك رزق الا التراب ، أنت عدو بنى آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك .

فقال آدم وحواء فى استغفار :

ـــ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

فقال الله لآدم :

ـــ أما كان لك فيما منحتك من الجنة وابحتك منها مندوحة عما حرمت عليك ؟

فقال آدم فى انكسار :

ـــ بلى يا رب ، ولكن وعزتك ما حسبت أن احدا يحلف بك كاذبا .

فقال الله :

ـــ فبعزتى لاهبطنك الى الأرض ، فلا تنال العيش الا كدا !

فقال آدم فى ذلة وتضرع :

ـــ رب غفرانك ، رب غفرانك !

فقال الله :

ـــ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين .

وهبط آدم الى الأرض ، وعلى راسه اكليل من شجر الجنة ، والقى نفسه على قمة جبل فى الهند وحيدا ، فراح يتلفت الى اليمين والى الشمال ، ويدور على عقبيه ، ويمد بصره الى الأفق البعيد ، فلا يجد الا الأرض والسماء ، فيحس رهبة ، لقد كان بجوار الرحمن آمنا هانئا ، فصار طريدا هائما على وجهه ، لا يدرى ما يفعل فى هذا الكون العريض ، كانت حواء الى جواره فى جنة النعيم ، تقاسمه هناءه ، فما باله لا يجدها اليوم معه فى دنيا الشقاء تقاسمه شقاءه ، لقد كانت سبب نكبته وأس بلائه ، ولكنه ما كان يحس نحوها حقدا أو بغضا ، بل كان يحن اليها ، وكانت أمنيته الأولى على وجه الأرض أن يتلاقى وزوجه .

وهبط آدم من على الجبل حتى بلغ سفحه ، وجعل يتلفت باحثا منقبا عن حواء ، ولكنه لم يجد لها من أثر ، فانقبض صدره ، وسالت عبراته ، وجعل يبكى على الفردوس المفقود .

وهبطت حواء بجدة من أرض مكة ، فألفت نفسها وحيدة فى ذلك الفضاء العريض ، فجزعت ، وراحت الرياح تولول وتصفر ، فازداد فزعها وجزعها ، وسقط الليل فراحت حواء تتلفت فى جزع واضطراب لعلها تجد لآدم اثرا ، أو لعل آدم يفد عليها فينقذها مما هى فيه من عذاب ، ولكن انقضى شطر الليل ولم يظهر آدم ، فجعلت تبكى حتى كاد قلبها ينصدع من البكاء .

وتصرم الليل وآدم نائم عند سفح الجبل ، وابتدأت الشمس تبزغ ، فهب من نومه يستقبل أول نهار يفد وهو على الأرض ،

ويرقب الشمس التى راحت تطل على الكون ، وييبس الاكليل الذى كان على رأسه فتحات ورقه ، وسقطت الاوراق على الأرض فنبتت طيبا فى أرض الهند . وجعل آدم يضرب فى الفضاء ، وينظر الى سعة الأرض وبسطتها فلم ير فيها أحــدا غيره . فاستوحش وقال :

ـــ يارب ، أما الأرضك هذه عامر يسبح بحمدك ويقدس لك غــيرى ؟

فسمع صوت الله يقول :

ـــ انى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع لذكرى ، ويسبح فيها خلقى ، ويذكر فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى ، وأوثره باسمى وأسميه بيتى ، أجعله حرما آمنا يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمه بحرمتى أستوجب بذلك كرامتى ، ومن اخاف اهله فيه ، فقد اخفر ذمتى ، وأباح حرمتى . أجعله أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركا ، يأتونه شعثا غبرا على كل ضامر من كل فج عميق ، يرجون بالتلبية رجيجا ، ويثجون بالبكاء ثجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن اعتمره ولا يريد غيره ، فقد وفد إلى وزارنى وضافنى ، وحق على الكريم أن يكرم وفده وضيفه ، تعمره يا آدم ما كنت حيا ، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن .

وأحس آدم حنينا الى بيت الله هذا الذى بمكة ، وأوحى اليه أن ينطلق الى البيت الحرام الذى أهبط له الى الأرض ، فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول عرش الله .

وراح آدم يطــوى الأرض طيا ، حتى اذا بلغ مكة لمــح امرأة على البعد تغذ السير ، فخفــق قلبــه ، واضــطرب

نفسه ، فأسرع نحوها وقلبه فى صدره كجناح خافق ، يكاد يقفز من فيه من شدة الفرح ، انها هى ، حواء نفسها ، الزوجة وحبيبة الفؤاد . ولما راته حواء ، ارتمت فى أحضانه تبكى وتنتحب فضمها الى صدره فى وله واشتياق .

لقد التقيا وتعارفا بمكة ، فسمى مكان تعارفهما عرفات .

— ٦ —

وانطلق آدم وحواء الى بيت الله ، واذا هو ياقوتة واحدة ، فراحا يطوفان ، ولما أتما مناسك الحج ، عادا الى الهند ، فاتخذا مغارة يأويان اليها فى الليل والنهار ، وأحس آدم شيئا يمض أمعاءه ، وشعر بضعف وخور ، فلما جاءه جبرائيل وصف له ما يحس ، فقال جبرائيل له :

— انه الجوع !

فقال آدم فى عجب :

— الجوع ! وما أمل ؟

فأجابه جبرائيل :

— استطعم ربك .

وذكر آدم ما كان فيه من نعيم ، فبكى وبكت حواء ، ورفع آدم وجهه الى السماء وجعل يدعو الله ان يطعمه ، وأخذ بطنه يصرخ به ، فأخذ فى الابتهال والدعاء ، فبعث الله اليه مع جبرائيل بسبع حبات من حنطة ، فوضعها فى

يد آدم ، فنظر اليها آدم ، ثم رفع عينيه الى الملك واستفسر :

ـــ ما هذا ؟

ـــ هذا الذي أخرجك من الجنة .

ـــ وما أصنع بهذا ؟ آكله ؟

ـــ انثره فى الأض .

فنثره آدم فأنبته الله من ساعته ، فنظر آدم الى الحنطة ، ثم قال :

ـــ آكله ؟

فقال له جبرائيل :

ـــ احصده .

فقال :

ـــ احصده ؟ كيف ؟

فأراه جبرائيل كيف يحصده ، فراح آدم يعمل ، فلما انتهى من حصده جمعه ثم سكت ، وتطلع الى جبرائيل ، فقال هذا له :

ـــ افركه .

فقال :

ـــ أفركه ؟ وكيف افركه ؟

فقال جبرائيل :

ـــ افركه بيديك .

فأخذ آدم يفركه بيديه ، وجعل العرق يتفصد منه ، ولما انتهى قال لجبرائيل فى لهفة :

ـــ آكله ؟

ـــ اذره .

ـــ وكيف اذروه ؟

فأراه جبرائيل كيف يذروه ، فجعل آدم يعمل وقد أحس تعبا ، ولكنه استمر فى عمله ، فان الجوع يعضه وان صراخه لينبعث من جوفه ، وانه ليود أن يسكت ذلك الصراخ الأليم وان كد وتعب ، ولما انتهى من تذريته تنفس الصعداء ، فقد حسب أن تعبه قد انتهى ، وان جبرائيل سيأمره بتناول طعامه ، ولكن جبرائيل قال له :

ـــ اطحنه .

فقال ادم فى تبرم :

ـــ وبم أطحنه ؟

فأتاه جبرائيل بحجرين ، فوضع أحدهما على الآخر وقال :

ـــ بهذه .

فطفق آدم يطحن الحبات بين شقى الرحى ، وقد سال عرقه ، وبان عليه الكلال .. وتم الطحن ، وقبل أن يلتقط انفاسه المبهورة ، قال له جبرائيل :

ـــ اعجنه .

فقال آدم فى صوت خفيض ذليل :

ـــ وكيف أعجنه ؟

فأمره أن يجلب ماء ، وأن يضع الدقيق فى وعاء ، وان صب الماء عليه ، ثم اراه كيف يعجنه ، فاخذ آدم يعجن ، ولما نهى رفع رأسه وراح ينظر الى جبرائيل ، فقال له جبرائيل :

ـــ اخبزه .

ـــ وكيف أخبزه ؟

ـــ أوقد نارا .

ـــ وكيف أوقد نارا ؟

ـــ اجمع بعض الأغصان اليابسة .

فجمع آدم بعض أغصان يبست ، وجمع جبرائيل له الحجر والحديد فقدحه ، فخرجت منه النار ، فاشتعلت الأغصان ، فمد آدم يده وقبض على النار فصرخ ، فقد احترقت يده ، ونظر الى جبرائيل فقال هذا :

ــ لقد أحرقتك النار لأنك عصيت الله .

وأخذ آدم يخبز خبزه ، فلما انتهى قال له جبرائيل :

ــ الآن كل يا آدم !

وارتفع جبرائيل ، وابتدأ آدم وحواء يأكلان ، ولما انتهيـا سكت صراخ البطن وابتدأ صراخ الفكر ، فراحت الأفكار تتوافد على رأس آدم فتذكر فيما تذكر قول الله له :

ــ يا آدم ان هــذا عــدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى .

فانهمر الدمع من مقلتيه ، فقد انتهت أيام الجنة سراعا ، أيام الهناءة والسعادة ، واقبلت أيام الدنيا القاسية ، أيام الصخب والتعب والنصب والشقاء .

— ٧ —

وحملت حواء ، فقاست ما تقاسيه النساء فى الحمل ، ثم جاءها المخاض ، فأشرفت على الموت مرارا قبل أن تضع ما فى بطنها ، ثم وضعت توءما ذكرا وأنثى ، وسمى الذكر قابيل ، والأنثى كليما ، ونشأ قابيل وكليما معا ، وكانت كليما تنمو حلوة جذابة جميلة ، ومرت أيام تتلوها أيام ثم شهور تجد فى أثرها شهور . فوضعت حواء توءما آخر ذكرا وأنثى ، وكان الذكر هابيل والأنثى لبودا .

وشب الأخوة الأربعة معا ، وكانت كلما مرت السنون تفتحت كليما وازدادت جاذبية وحسنا ، فكانت أجمل من لبودا ، وأكثر فتنة وسحرا ، فتعلق بها قابيل وتدله بها حبا .

واشتد ساعد قابيل وهابيل ، فخرج قابيل لبذر الأرض . فقد كان على بذرها ، وخرج هابيل ليرعى ماشيته ، كان على رعى الماشية ، وجعل كل يعمل عمله حتى اذا ما غابت الشمس عن الكون عاد كل منهما الى الكهف ليشارك الأسرة طعامها .

وجلس حول الطعام آدم وحواء وأبناؤهما وكانت كليما باهرة الحسن ، حلوة الملامح ، فجعل كل من قابيل وهابيل يسترق النظر اليها ، وفطن آدم الى نظراتهما فعزم على أن يزوج أبناءه ، وقد كانت شريعته أن يتزوج الرجل أى أخواته شاء الا توءمته التى ولدت معه ، فقال :

ـــ آن أوان زواج قابيل وهابيل ، فليتزوج قابيل من لبودا ، وليتزوج هابيل من كليما .

فبدت الغبطة فى وجه هابيل ، وامتعض قابيـــل ، وبان الغضب فى وجهه ، انه ليضن باخته على اخيه ، فلم يكتم سورة غضبه بل انفجر صائحا :

ـــ أنا أحق بأختى .

فقال آدم ليهدىء من ثورة ابنه :

ـــ يابنى ! انها لا تحل لك .

فقال قابيل فى اصرار :

ـــ انها تحل لى ، انها أختى ، وانا أحق بأختى من هابيل .

ونظر قابيل الى كليما ، فبدت له أجمل وأحلى مما كان يراها ، فعقد العزم على التشبث بها وعدم تركها لهابيل ، فأخذ يردد :

ـــ انها لى ، لى أنا ، لن أتزوج الا كليما ، وليتزوج هابيل من لبودا .

فبان على آدم التردد ، وأخذ يتطلع الى قابيل وهابيل ، انه ليحس نحوهما عطفا وحبا ، انه لا يستطيع أن يرغم قابيل على تزويج أخته التى يهواها ويحبها من هابيل ، فالتفت الى قابيل وقال :

ـــ يا بنى ! فقرب قربانا ويقرب أخوك هابيل قربانا ، فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها .

وخرج آدم ليأتى مكة ليطـــوف ببيت الله ، وتأهب قابيل وهابيل ليقربا قربانا ، فقرب هابيل أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها ، طيبة بها نفســه ، وقرب قابيل شر حرثه ، الكوذر والزوان غير

طيبة بها نفسه ، وكان الرجل اذا قرب قربانا فرضيه الله عز وجل ارسل اليه نارا فأكلته ، فأخذ قابيل وهابيل ينتظران قضاء الله فى قربانهما .

ومرت سويعات وهما ينتظران قضاء الله فى اضطراب وقلق وخوف ، وكان هابيل أكثر اطمئنانا ، وأعمر قلبا ، فقد كان صاحب حق ، فان الشريعة لتقضى بزواجه من كليما ، وكان قابيل باغيا ظالما ، لا يحب الا نفسه ، ولا يهمه من سواها ، فجعل ينتظر قضاء الله وقد بيت فى نفسه أن لا يخضع لهذا القضاء ما لم يكن فى جانبه .

وانقضت نار بيضاء من السماء كسهم انطلق من قوسه ، فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فشكر هابيل ربه ، وشاق قابيل بالغيظ صدره ، وأحس دماءه تجرى بالمقت والحقد ، وأعمى الغضب بصيرته ، وجاءه الشيطان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، وراح يوسوس له أن اقتل أخاك قبل أن يستحوذ على كليما ، ورأى بعين خياله لبودا القبيحة الى جواره ، فثارت ثائرته ولم يستطع أن يكبت ما وسوس الشيطان به فى صدره ، فنظر الى أخيه نظرة مقت وحقد وغضب وقال :

ـــ لاقتلنكَ !!

فقال هابيل فى اطمئنان ، وكان أشد من أخيه وأقوى :

ـــ انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك ، انى أخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلكَ جزاء الظالمين .

وأدار هابيل ظهره لأخيه وانصرف ، وراح قابيل يفكر فى أن ينقض على هابيل ويقتله ، ولكنه ثبت فى مكانه لا يريم حتى اختفى هابيل عن عينيه .

سار قابيل مطأطىء الرأس ، باسر الوجه ، منقبض الصدر ، يعض على نواجذه غيظا ، يلتقط نفسه المكروب فى جهد ، فكأنما كانت يد قوية تضغط رقبته ضغطا ، وجعلت الأفكار الخبيثة تتوافد على مخيلته توافد الموج ، فاذا ما تكسرت فكرة ، وفدت فكرة أعظم شرا واشد خبثا .

وبلغ قابيل الكهف ، ورأى كليما فأحس خزيا ، فان الله لم يتقبل قربانه ، وقضى بزواجها من هابيل ، وتمدد لينام ، وكان المكان حالك الظلام . فأخذت الأفكار تنمو ، وراحت تتجسم فى مخيلته . فتعذبه وتضنيه : ان هابيل سيهنأ بكليما الجميلة الفتانة الجذابة ، أما هو فيشقى بلبودا البغيضة القبيحة ، انه ليحس انه بأخته أولى ، لقد اتفقت السماء والأرض على تعذيبه ، فلن يخضع لمشيئة الارض ، ولن يأبه لحكم السماء ، ولن يترك كليما لهابيل أبدا ، وليكن ما يكون .

واستمر فى قلقه وأرقه ، يصغى الى شيطانه ، وشيطانه يلعب به ويمنيه ، وانقضى الليل وما انقضى عذابه فعزم على ان يضع لهذا الضنا حدا .

خرج هابيل كما اعتاد أن يخرج كل يوم ، وراح يرعى ماشيته ، واقبل قابيل محطم النفس يحس كأنما عقدت فى صدره عقدة من الحقد والمقت ، ولمح اخاه فى ماشيته فلم ير فيه الا سالب سعادته وهنائه ، فحمل صخرة واقترب من أخيه ثم ضربه بها ، فسقط هابيل مجدلا ، وسال أول دم على الأرض ،

وتعففت الأرض فلم تمتصه بل تركته ، أنها لتترفع عن أن تشارك الانسان جرمه وبغيه وطغيانه .

ونظر قابيل الى أخيه الذى انكفأ على وجهه فاقد الحراك ، وقد انقشع المقت عن صدره ، فقد شفى غليله ، فما درى مايفعل بذلك الجسد الفانى ، وانقضت ساعات وقابيل أمام أخيه المجدل حائر . وأقبل غرابان ، وراحا يقتتلان ، فجعل قابيل يرقبهما فقتل أحدهما الآخر ، فلما سقط المقتول على الأرض لم يتركه القاتل فى الفضاء ، بل عمد الى الأرض ، وراح يحفر له فيها ، ثم جذب المقتول ووضعه فى الحفرة ، وواره بالتراب ، فلما راى قابيل ذلك غمغم :

ـــ يا ويلتى ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ؟ .

ثم نهض وطفق يحفر لأخيه ، ثم واراه فى قبره .

وعاد آدم من مكة ، وانطلق الى كهفه ، فلما رآه قابيل قادما أحس وجلا . فأخذ بيد أخته كليما وفر من وجهه ، فأسرع آدم الى الكهف ، فعلم بمقتل هابيل ، فأحس حزنا يقطع نياط قلبه ، والدمع يسبح من مقلتيه ، فهرول فى غضب خلف قابيل ، فرآه هابطا من الجبل آخذا بيد أخته ، فصاح به فى حنق :

ـــ اذهب ، فلا تزال مرعوبا لا تأمن من تراه .

ابن الذبيحين

« وابن الجارية ايضا ساجعله أمة لأنه من نسلك » .

(التوراة)

« مالك يا هاجر ، لا تخافى الآن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة »

(التوراة)

— ١ —

خرج ابراهيم من المعبد وهو شارد اللب ، فقومه عاكفون على عبادة التماثيل ، وان عقله لينفر من تلك الآلهة التى لا تسمع اذا دعوها ، ولا تنفع ولا تضر ، وظل يفكر ويقلب وجهه فى السموات والأرض ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال :

— هذا ربى .

فلما افل قال :

— لا أحب الآفلين .

وجعل يقلب وجهه فى السماء ، فلما رأى القمر بازغا قال :

— هذا ربى .

فلما افل قال :

ـــ ان لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين .

وعاد الى أهله ، وهو فى حيرة من أمره ، وانقضى الليل ، وجاء النهار ، فخرج ، فلما رأى الشمس بازغة قال :

ـــ هذا ربى ، هذا أكبر .

فلما افلت قال :

ـــ يا قوم انى برىء مما تشركون .

واهتدى الى من فطر السموات والأرض ، فامتلأ قلبه ايمانا ، ونزلت به سكينة ، وانطلق الى المعبد فألفى أباه وقومه يعبدون التماثيل ، فقال لهم :

ـــ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

قالوا :

ـــ وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال :

ـــ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قالوا :

ـــ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

قال :

ـــ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

ـــ بل هذه الأصنام آلهتنا يا ابراهيم .

ـــ هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم او يضرون ؟

ـــ هذه آلهتنا يا ابراهيم ، نظل لها عاكفين .

ـــ فانهم عدو لى الا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو

يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذى اطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

ـــ سنعبدها وسنظل على عبادتها ، اننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

ـــ تالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .

ـ ٢ ـ

جاء يوم العيد ، وتأهبوا للخروج الى ظاهر البلد ، وجاء الى ابراهيم ابوه ، وسأله أن يخرج معهم ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال :

ـــ انى سقيم .

وخرج الناس وبقى ابراهيم ، حتى اذا غابوا عن عينيه ذهب الى المعبد مسرعا مستخفيا ، وانطلق فى البهو العظيم ، فالفى الأصنام وبين أيديها الوان من الأطعمة قدمها الناس قربانا اليها ، فقال لها متهكما :

ـــ الا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟

فراغ عليهم ضربا باليمين ، فكسرها بقدوم فى يده ، فجعلها حطاما ، الا كبيرا لهم ، لعلهم اليه يرجعون ، وذهب الى الكبير ، ووضع فى يده القدوم .

ورجع الناس من عيدهم ، وانطلقوا الى المعبد ، فراعهم ما حل بآلهتم ، قالوا :

ـــ من فعل هذا بآلهتنا ، انه لمن الظالمين .

قال بعضهم :

ـــ سمعنا فتى يذكرهم ، يقال له ابراهيم .
ـــ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .
وجاء ابراهيم ، وحشر الناس فى المعبد ، قالوا :
ـــ أانت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟
قال :
ـــ بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون .
فأدركت القوم حيرة ، فأطرقوا ثم قالوا :
ـــ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ..
ـــ افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ، ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ! أفلا تعقلون ؟
فأقبلوا اليه يسرعون ، قال :
ـــ أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون .
فغلبوا ، فعدلوا عن المناظرة ، وأرادوا ان يستروا هزيمتهم فلجئوا الى القوة ، قالوا :
ـــ ابنوا له بنيانا ، فألقوه فى الجحيم
وصاح صائح :
ـــ حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ..
فشرعوا يجمعون حطبا ، ثم عمدوا الى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب ، واطلقوا فيه النار ، فاضطرمت وتأججت ، واندلع لهيبهسا يتراقص كأنه ألسنة الشياطين، ثم وضعوا ابراهيم فى منجنيق وأطلقوه ، فانطلق حتى وقع فى النار وهو يقول :
ـــ اللهم انك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد اعبدك .
قال الله :

— يا نار ، كونى بردا وسلاما على ابراهيم .

ووقف الناس ينظرون ، وقد علاهم الدهش ، لانهم وجدوه والنار حوله لا تصيب منه شيئا ، ونظر ابوه ، فلما راى ابنه فى النار لا تؤذيه ، قال :

— نعم الرب ربك يا ابراهيم .

— ٣ —

وبلغ الملك ان النار كانت بردا وسلاما على ابراهيم ، فلم يصدق ما بلغه ، فخرج فى رجاله الى حيث كانت النار تتاجج شررها يتطاير ، واحس حرارتها تلفح وجهه ، فمد بصره ، فرأى ابراهيم يتصبب عرقه ولم يحرق منه سوى وثاقه ، فأحس قهرا ، وزاد فى قهره ان راى الناس يتهامسون ، فخشى أن يفتنهم ذلك الشاب الذى جاء يدعوهم الى اله غيره ، فقد كان يدعى انه ربهم العظيم .

وأمر الملك الناس أن يخرجوه ، فدنا بعضهم من النار ، فشعروا بلفحها يكاد يشويهم ، فوقفوا بعيدا لا يقدرون على الوصول اليه ، وارتفعت هتافاتهم تدعوه أن يخرج اليهم .

وخرج ابراهيم من النار لم يمسه شىء من حرها ، فانطلقت اليه أمه تعتنقه فى حب ، وتقبله فى حنان ، وهى تبكى لا يرقأ لها دمع ، وذهب اليه أبوه وقد انبثقت فى جوفه مشاعر الأبوة الرقيقة الحانية .

وجىء به الى الملك ، فقال له فى كبرياء

— من ربك هذا الذى تدعو اليه ؟
قال ابراهيم :
— ربى الذى يحيى ويميت .
فقال الملك فى استخفاف :
— انا أحيى واميت .
— لا تستطيع .
— سترى .
وجاء الملك برجلين حكم عليهما بالموت ، وقال :
— اقتل هذا واعفو عن هذا .
فقال ابراهيم :
— هذا تشغيب .
فقال الملك مكابرا :
— الا ترى يا ابراهيم اننى أحيى واميت !
وتطلق وجه الملك ، وابتسم الناس ابتغاء مرضاته ، وقال ابراهيم :
— فان الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب .
فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

— ٤ —

هجر ابراهيم قومه فى الله ، وهاجر من بين اظهرهم ، وخرجت معه امرأته سارة ، وابن اخيه لوط ، فقد آمن به ، حتى اذا بلغوا الشام ، أوحى الله اليه :
— انى جاعل هذه الأرض لخلفك بعدك

فابتنى ابراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة ، وضرب قبة ، وعاش يعبد ربه ، ونزل بالبلاد قحط وشدة وغلاء ، فحمل ابراهيم سارة وارتحل الى مصر ، ونزل بالقرب من قصر فرعون .

ورأى غلمان فرعون سارة ، وكانت ذات جمال ساحر ، فذهبوا اليه ، وقالوا له :

— نزل هنا رجل معه امرأة من احسن النساء .

فارسل اليه ، فدخل ابراهيم على فرعون وهو خائف ، فقال له :

— من هذه معك ؟

— اختى .

— فأرسل بها إلى .

فرجع ابراهيم الى سارة وهو حزين ، فقالت له :

— ماذا قال لك ؟

— سألنى عنك ، فقلت انك اختى ، وانه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك وانك اختى ، فلا تكذبنيى عنده .

وذهبت سارة الى القصر وهى تدعو الله :

— اللهم ان كنت تعلم انى آمنت بك وبرسولك ، واحصنت فرجى الا على زوجى ، فلا تسلط على الكافر .

ودخلت عليه ، فالتمعت عيناه سرورا ، فقد كان جمالها آسرا ، وحسنها باهرا ، ودنا منها ، واراد ان يمد يده اليها فأحس كأنما شلت يده ، فارتاع ، فقالت له سارة :

— هذا من فعل ربى .

— ادعى الله لى ولا اضرك .

فدعت له ، فعادت يده كما كانت ، فمدها اليها فشلت ، فقال لها :

ـ ادعى الله ولا اضرك .

فدعت له ، فعادت يده كما كانت ، فراح يمـدها اليهـا فشلت .

فقال لها فى توبيل :

ـ هذا حق ، هذا من عنـد ربك ، ادعى الله لى ولن أضرك .

فدعت له ، فلما أرسل ، نادى أدنى حشمة فقال :

ـ ما أرسلتم الى الا شيطانا ، أرجعوها الى ابراهيم ، واعطوها هاجر .

ورجعت سارة الى زوجها وخلفها هاجر ، فلما دنت من خيمته الفته يصلى ، فلما احس بها انصرف ، واقبل عليها يسألها عما حدث ؟ فقالت :

ـ كفى الله كيد الظالم ، واخدمنى هاجر .

— ٥ —

خـرج ابراهيم وسـارة من مصر ، وفى رفقتهما هاجر المصرية ، ونزلوا برية الشام . وتوالت السـنون ، وراحت سارة تتطلـع الى هاجر ، تالقت ماء الشـباب يترقـرق فى وجهها . ونبتت فى ذهنها فكرة ، أن زوجها دعا ربه أن يهب له ذرية من الصالحين ، وهى عجوز عقـيم ، وزوجها شيخ

كبير ، فلماذا لا تهب له هذه الجارية يتزوجها ، فيرزقه الله الذرية الصالحة !

ودخلت على ابراهيم وقالت :

ــ انى وهبت لك هاجر .

فنظر اليها وفى عينيه سؤال ، وقالت :

ــ انى أراها امرأة وضيئة فلعل الله يرزقك منها ولدا نقر به عينا .

وتزوج ابراهيم هاجر ، فحملت منه ، ففرح ، وخيل لسارة أن هاجر ارتفعت نفسها ، وتعاظمت عليها ، فلم تطق أن تكتم غيرتها فكانت تشكوها الى زوجها .

وضعت هاجر اسماعيل ، فطاف بالدار الفرح ، وسرت سارة ، ولكن سرعان ما غاض فرحها ، فقد كانت تشتهى أن يكون الولد منها .

ومرت الأيام ، واسماعيل يترعرع ، وسارة ترقبه وفى قلبها حزن ، فقد حرمت ان يكون لها من بعلها ولد .

وراح الناس ينزلون على ابراهيم ، فقد أوسع الله عليه ، وتقضت خمس عشرة ليلة ولم ينزل به احد ، فقد حبس الضيف ، فشق ذلك عليه ، وهبط الليل ، فأوقد نارا لعل احدا يأتيه ، وجلس أمام قبته ، واذا برجال قادمين ، فلما راوه قالوا :

ــ سلاما »

قال :

ــ سلام قوم منكرون »

فراغ الى اهله ، فجاء بعجل سمين ، فقربه اليهم ، فلم يأكلوا ، قال :

ــ الا تأكلون ؟

ونظر اليهم فلما راى ايديهم لا تصل اليهم نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، وقال :

ـ إنا منكم وجلون .

ـ لا تخف ، انا أرسلنا الى قوم لوط .

كانت سارة قائمة ، فلما رأت خوف زوجها ضحكت ، لأنها فطنت الى ان الرجال رسل الرحمن ، قالوا :

ـ انا نبشرك بغلام عليم .

فلما سمعت سارة البشرى قالت :

ـ يا ويلتى االد وانا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، ان هذا لشيء عجيب .

وقال ابراهيم :

ـ أبشرتمونى على ان مسنى الكبر ، فبم تبشرون ؟

قالوا :

ـ بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال :

ـ ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

ـ ٦ ـ

حملت سارة ووضعت اسحاق ، ففرحت به ، وفرح به أبوه ، وتوجه الى الله يشكره :

ـ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربى لسميع الدعاء .

ورأت سارة أن تتخلص من اسماعيل وامه ، فلما دخل ابراهيم عليها قالت فى غضب :

ــ اطرد هذه الجارية وابنها .

ــ لــــه ؟

ــ ان ابن الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق .

ساء ابراهيم ما سمع ، واحس مرارة ، فما كان يظن ان الامــر يصل الى أن تطلب سارة اخراج هاجر وابنها من الشـــــام ، وكان لكلامها وقع ثقيل فى نفسه ، ففكر فى الا يجيبها الى طلبها ، وفيما هو فى حزنه وتفكيره ، أوحى الله اليه أن استمع الى سارة ، ولا تحزن على اسماعيل وامه ، وأخرج بابنك ، فسأباركه واجعله أمة عظيمة .

وتأهب ابراهيم للخروج بزوجه وابنه ، فأخذ خبزا وحمل قربة ماء ، وانطلق حيث أوحى الله اليه ان ينطلق ، حتى اذا بلغ مكة ترك هاجر واسماعيل وتأهب للعودة ، فهرعت هاجر اليه ، وقالت فى فزع :

ــ الى من تكلنا ؟

فلم يتكلم ابراهيم ، وظل فى صمته ، فقالت :

ــ الله أمرك بهذا ؟

ــ نعم .

ــ اذن لا يضيعنا .

وانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا :

ــ ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهــوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

— ٧ —

عاشت هاجر واسماعيل فى قلب الصحراء ، فى رعاية الله ، وتصرمت الايام وهما فى عريشهما ، ونفد ما كان معهما من ماء ، فعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى ، فانطلقت كراهية ان تنظر اليه ، فوجدت الصفا اقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، واستقبلت الوادى تنظر هل ترى احدا ، فلم تر احدا ، فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعيها ، ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى اذا جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ونظرت هل ترى احدا ، فلم تر احدا ، واستمرت تهرول فى فزع واعياء بين الصفا والمروة ، ثم ذهبت الى اسماعيل لترى الا يزال حيا ، فرأت تحت قدميه ماء ، فقد فجر الله له زمزم ، فانكبت على الماء وجعلت تغرف منه ، تروى ظمأتها ، وتملأ سقاءها .

ومرت رفقة من جرهم مقبلين ، فنزلوا فى اسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فتعجبوا وقالوا :

— ان هذا الطائر ليدور على الماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء .

فانطلقوا ليروا ما هناك ، فرأوا زمزم وهاجر عندها ، فقالوا لهما :

— تأذنين لنا ان ننزل عندك ؟

— نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء .

ـــ نعم .

فنزلوا وارسلوا الى أهليهـم ، فنزلوا معهم حتى صار بهم أهل أبيات منهم ، وشب اسماعيل بينهم ، وتعـلم العـربية منهـم .

وأعجبهم حين شب ، فزوجوه منهم ليتحقق وعد الله بأن يباركه ويجعله أمة عظيمة .

- ٨ -

أحس ابراهيم شوقا الى ابنه ، فتأهب للخروج ، وأخبر سارة بخروجه ، فشاءت أن تثبطه غيرة من هاجر ، فأخبرها انه لن يزيد على السلام ، واستطلاع الحال .

وخرج ابراهيم فأتى مكة ، وذهب الى زمزم ، فالفى اسماعيل يبرى نباله تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه ، فاعتنقا فى شوق ، وراحا يتحدثان ، وانطلقا الى الخيام .

ونام ابراهيم ، فرأى فى المنام انه يذبح ابنه ، ولما كانت رؤيا الأنبياء وحيا ، فقد صدق الرؤيا ، وعزم على أن يمتثل لأمر الله ، ودعا اسماعيل ، وقال له :

ـــ يا بنى ، انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى .

فقال اسماعيل :

ـــ يا أبت ، افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين .

ـــ يا بنى خذ الحبل والمدية .

وانطلقا ، وفى الطريق اعترضهما ابليس فى هيئة رجل ، ودنا من ابراهيم وقال له :

ـــ أين تريد أيها الشيخ ؟

ـــ أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه .

ـــ تريده لتذبح ابنك ، لعل الشيطان جاءك فى منامك ، فأمرك بذلك ؟

فعرفه ابراهيم ، فقال له :

ـــ اليك عنى ، أى عدو الله ، فوالله لأمضين لأمر ربى .

وسار ابراهيم مطرقا ، واسماعيل خلفه يحمل الحبل والشفرة ، فاعترضه ابليس وقال له :

ـــ أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟

ـــ نعم ، أدرى .

ـــ أتدرى أنه يزعم أن ربه أمره بأن يذبحك ؟

ـــ فليفعل ما أمره الله ، سمعا لله وطاعة .

وانطلقا حتى اذا بلغا مكانا قصيا وقفا ، وقد دثر السكون سكون رهيب ، ووقف ابراهيم ينظر الى ابنه وقد تفجرت فى جوفه عواطف متباينة ، انه يحس حبا طاغيا لابنه ، ويحس رغبة فى تنفيذ أمر ربه ، وجعل يرمق ابنه الذى سيذبحه برهة ، فقال اسماعيل :

ـــ يا أبت ، ان أردت ذبحى ، فاشدد رباطى ، لا يصيبكَ منى شىء فينقص أجرى ، فان الموت شديد ، واشحذ شفرتك حتى تجهز على فتريحنى .

وألقاه على وجهه وقلبه ينفطر حتى لا ينظر الى وجهه ، خشية أن تدركه رقة تحول بينه وبين أمر الله ، وكان على

اسماعيل قميص أبيض ، فقال :

— يا أبت ، انه ليس لى ثوب تكفننى فيه غير هذا ، فاخلعه عنى .

وراح اسماعيل يخلع قميصه ، وابراهيم يغالب عواطفه ويقول :

— نعم العون انت يابنى على أمر الله .

وشحذ شفرته فكأنما كان يقطع بها مهجته ، واضجع ابنه ، وهم بذبحه ، فسمع مناديا ينادى :

— يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين .

فالتفت ابراهيم ، فاذا بكبش أبيض أقرن ، قد بعثه الله فدية لاسماعيل ، فامتلأ فؤاد ابراهيم نشوة ، واحس كأنما اثقال الدنيا انزاحت عن صدره ، واكب على ابنه يقبله مغتبطا وهو يغمغم ودموعه تجرى على لحيته البيضاء :

— يا بنى اليوم وهبت لى .

— ٩ —

دثر مكان البيت المقدس ، واصبح موضعه اكمة حمراء ، فاوحى الله الى ابراهيم : ان ابن لى بيتا ، فذهب الى ابنه اسماعيل ، وقال له :

— ان الله عهد الينا ان نطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود .

فانطلقا الى مكان البيت ، فجعل ابراهيم يبنيه ، واسماعيل يناوله الحجارة وهما يبتهلان :

— ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك ، وأرنا ناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم .

وأراد ابراهيم ان يجعل للناس علما يبتدئون الطواف منه ، ويختمون به ، فقال لابنه :

— يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا .

فراح اسماعيل يبحث ثم عاد بالحجر الأسود ، فوضعه ابراهيم موضعه، وبنى عليه ، ولما أتم ما امر به قال :

— رب ، قد فرغت .

قال :

— اذن فى الناس بالحج .

— أى رب ، ومن يبلغ صوتى ؟

— اذن وعلى البلاغ .

— أى رب ، وكيف اقول ؟

— قل : يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق ، فاجيبوا ربكم .

فوقف ابراهيم على المقام يؤذن فى الناس بالحج ، فجاء الناس من كل فج عميق .

ومرت الأجيال ، وتكاثرت ذرية اسماعيل تحقيقا لوعد الله ، وتلبية لدعوة خليله ، وبقى الحرم آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء ، تفد اليه أمة ، وتذهب عنه امة من ذرية اسماعيل .

وجاءت جرهم ، واستخفت بأمر البيت الحرام ، فارتكبوا فيه المعاصى ، وخشى رئيسهم أن يسلبوا الكعبة ، وكان بهـا غزالتان من ذهب ، ودروع وأسياف وأموال ، فعمد اليها ودفنها فى زمزم وطم البئر واعتزل قومه .

وجاءت خزاعة وأخرجت جرهم من الحرم ، ولم تكن تدرى أمر زمزم ، فبقيت مطمسورة مجهولة ، وحفرت آبار أخـرى للنــاس (٥)

وتصرمت السنون ، وقفتها الأجيال ، واصبح عبـد المطلب سيد قريش ، وفى ذات يوم دخلَ الى الحجر ونام ، وفيما هو فى نومه اذ أتاه آت فقالَ لهَ :

ـ احفر طيبة .

ـ وما طيبة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كان الغد ، رجع الى مضجعه فنام ، فجاءه ، فقال له :

ـ أحفر برة .

ـ وما برة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كا نالغد ، رجع الى مضجعه ، فنام ، فجاءه فقالَ له :

ـ احفر المضنونة .

ـ وما المضنونة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كان الغد رجع الى مضجعه ، فنام ، فجاءه فقال له :

ــ احفر زمزم ، انك ان حفرتها لا تنـدم ، وهى ميراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم .

ــ واين هى ؟

ــ بين الفرث والدم ، عند قرية النمل ، حيث ينقر الغـراب الاعصم .

فلما كان الغد ، ذهب عبـد المطلب ووحيـده الحارث الى قرية النمل ، فوجـد غـرابا ينقر بين الصنمين اساف ونائلة ، فجاء عبد المطلب بالمعول ، وقام ليحفر ، فقامت اليـه قـريش فقالوا :

ــ والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث :

ــ أمنع عنى حتى احفر ، والله لأمضين لما أمرت به .

فالتفت القوم الى عبد المطلب وفى عيونهم هزء وسخرية ، انه ليس له الا الحارث ، وانى للحارث أن يمنع عنه ، فقال له عدى بن نوفل ساخرا :

ــ يا عبد المطلب ، ستطيل علينا وانت فذ لا ولد لك ولا مال ، وما أنت الا واحد فى قومك !

فغضب عبد المطلب وقال لعدى :

ــ أتقول هذا وقد كان نوفل أبوك فى حجر هاشم !

ــ وأنت أيضا كنت فى يثرب عند أخوالك من بنى النجار ، حتى ردك عمك المطلب .

فقال عبد المطلب فى غضب :

ـــ او بالقلة تعيرني لا فلله على النذر لئن آتاني الله عشرة من الأولاد الذكور ، لأنحرن أحدهم عند الكعبة .

فكف قومه عنه ، وظل يعمل حتى نبع الماء ، فاعترفوا بزمزم لعبد المطلب ، لا يخاصمونه فيها ابدا .

وكرت السنون ، وصار أولاد عبد المطلب عشرة ، وكان قد نسى نذره ، فدخل لينام ، واذا بهاتف يأتيه ، كما جاء جده ابراهيم خليل الرحمن من آلاف السنين :

ـــ اذبح احد أولادك وفاء لنذرك .

وكما أطاع ابراهيم وحى الله ، أطاع عبد المطلب رؤياه ، فجمع أولاده ، وخرج الى السادن يضرب القداح عليهم ، فخرج القدح على أصغرهم عبد الله ، وكان أحب ولده اليه ، فأخذه بيده ، كما أخذ ابراهيم اسماعيل ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به على اساف ونائلة والجموع خلفه ، لترى عبد المطلب يذبح حبيبه ، ارضاء لربه .

وبلغ سادات قريش ما اعتزم عليه عبد المطلب ، فخرجوا من أنديتهم مذعورين يخشون أن تصبح هذه العادة سنة فيهم ، وبلغ بنى مخزوم أخوال عبد الله ، ما عقد الشيخ عليه العزم ، فانطلقوا اليه ، فألفوه قد ألقى ابنه عبد الله على الأرض ووضع رجله على عنقه ، وأخذ الشفرة ليذبحه ، وقبل أن يذبحه ظهر سادات قريش يتصايحون :

ـــ لا تفعل حتى تستفتي فيه ، لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه .

وقال بنو مخزوم :

ـــ والله ما أحسنت عشرة أمه !

فأصر عبد المطلب على أن يوفى بنذره ، فقالوا له :

ــ فلنأت كاهنة خيبر فنسألها ، فان امرتك بذبحه ذبحته ، وان امرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

وتجهزت الرواحل ، وانطلقوا الى خيبر ، ودخل عبد المطلب وهو يرجو فى نفسه أن تجد منفذا لنذره ، وجعل يقص عليها قصته حتى اذا ما انتهى ، تطلع اليها فى لهفة ، فقالت فى هدوء :

ــ ارجعوا عنى اليوم حتى ياتى تابعى فأسأله .

فتركوها وخرجوا ينتظرون الغد ، وانقضى الليل فى قلق وارق ، ويأس ورجاء ، حتى اذا تنفس الصبح خرجوا اليها ، فاستقبلتهم فأحسنت استقبالهم ، ثم ابتدأت شفتاها تتحركان ، فتعلقت العيون بهما ، قالت :

ــ قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟

ــ عشرة من الابل ؟

فقالت لعبد المطلب :

ــ تخرج عشرة من الابل وتقدح ، وكلما وقعت القداح على ابنك ، تزيد عدد الابل حتى تخرج القداح على الابل .

فسكنت الطمأنينة نفوس القوم ، واحسوا راحة ، فقد انقذت حياة عبد الله .

وراح عبد المطلب يضرب القداح ، وما زال يزيد عشرة عشرة حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح على الابل ، فصاح القوم فى سرور :

ــ لقد رضى ربك .

فقال عبد المطلب :

ــ لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات .

فضرب ثلاث مرات ، فخرجت القداح عليها ثلاث مرات ، فاطمأنت نفس عبد المطلب ورضيت ، وراح ينحر الابل المائة فى ابتهاج ، وتركها للناس يأكلون ، لا يصد عنها أحدا .

— ١١ —

وخرج عبد المطلب الى اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من اليهود يقرأ الكتاب ، فالتفت الحبر الى عبد المطلب وقال :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— ان فى احدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة .

وانتهت أيام التجارة ، فعاد عبد المطلب الى مكة ، وكلمات الحبر تفد الى ذهنه كلما خلا بنفسه ، وخطب عبد المطلب الى بنى زهرة ، فخطب هالة بنت وهب لنفسه ، وخطب آمنة بنت وهب لابنه الذبيح عبد الله ، وتزوجا وأولما فى ليلة واحدة .

وتأهبت العير للخروج الى الشام ، فخرج عبد الله وقومه للتجارة ، فلما فرغوا من تجارتهم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وكان عبد الله يحس مرضا ، فتخلف عند أخواله بنى النجار ، ثم ما لبث أن مات قبل أن يشهد وليده الذى حملت به آمنة بنت وهب . ونام عبد المطلب فى الحجر ، فرأى رؤيا هالته ، فقام الى كاهنة قريش يقص عليها ما رأى :

ـــ انى رأيت الليلة ، وانا نائم فى الحجر ، كأن شــجرة نبتت قد نال راســهاالســماء ، وضربت بأغصــانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نورا أزهر منها ، ورأيت العــرب والعجم ساجدين لها ، وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ورأيت رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوما من قريش يريدون قطعها ، فاذا دنوا منها أخــرهم شــاب ، لم ار قط أحسن منه وجها ، ولا أطيب منه ريحا ، فيكسر أظهرهم ، ويقلع أعينهم ، فرفعت يدى لأنال منها نصيبا فلم أنله ، فانتبهت مذعورا فزعا .

فتغير وجه الكاهنة ، ثم قالت :

ـــ لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب .

وجاء البشير الى عبد المطلب بأن آمنة وضعت غــلاما ، فظهــر البشر فى وجهــه ، وقام من مجلســه منطلقا الى دار آمنة ، ليرى حفيده ، وقــد عزم أن يسميه قثم ، لأن ابنــه قثم قد مات ، وهو ابن تســع ســنين ، وقد خلف له حــزنا شديدا ، فأراد أن يســمى حفيده باســمه تخليدا لذكــرى ابنه ، فلما دخل على آمنة ، وأخذ الوليد بين يديه ، التفت الى أمه وقال :

ـــ لقد سميته قثم .

فقالت آمنة :

ـــ أمرت فى منامى أن أسميه محمدا .

وفى اليوم السابع أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجالا من قريش ، فجاءوا واطعموا ، وجىء بالمولود فابتهجوا به ، وسألوا عبد المطلب عن اسمه ، فقال :

ـــ محمد .

فنظر القوم بعضهم الى بعض فى عجب وقال أحدهم :

ـــ ولم رغبت عن اسماء آبائك ؟

ـــ ليكون محمودا فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه .

وانصرف القوم ، وما دار بخلد أحدهم أن ابن الذبيحين الذى ولد هو البشرى التى بشر الله بها هاجر واسماعيل يوم قال سبحانه : « قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى ساجعله امة عظيمة » وانه دعوة ابراهيم التى دعاها يوم كان يرفع القواعد من البيت : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . انك أنت العزيز الحكيم) .

مـــــوسى

« واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطـور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبيا) .

« قرآن كريم »

- ١ -

ارسل يوسف يدعو اليه أباه واهل بيته ، فوفد بنو اسرائيل الى مصر مع يعقوب ، ونزلوا بها ، وراحوا يتغلغلون فى ربوعها ، ويستولون على منابع الثروات فيها ، وما تصرمت ثلاثمائة سنة حتى امتلأت مصر بهم ، واصبحت ثروتها فى أيديهم .

ورأى فرعون مصر أن اليهود صاروا سادتها ، فالاراضى أصبحت ملك يمينهم ، والصناعات تحت سيطرتهم ، والأموال تتسرب من جيوب الشعب الى خزائنهم ، فأوجس خيفة من اشتداد شوكتهم ، انهم غرباء عن البلاد ، فما يدريه اذا ما شبت حرب بينه وبين أعدائه ، أن ينضموا اليهم ، ليسلبوه مقاليد الحكم والسلطان !

وفكر فرعون ، فرأى أن يجـردهم من أمـلاكهم ، وان يصادر أموالهم ، وأن يسومهم سوء العذاب ، فضم أراضيهم الى أراضيه ، وأموالهم الى بيت ماله ، وجعلهم خدما له ، وصنفهم فى أعماله ، ففريق يبنون له المدن والمعابد ، وفريق يحرثون له اراضيه ، وفريق يزرعون ويحصدون .

أصبح بنو اسرائيل فى مصر عبيدا أذلاء ، يقاسون الهون والاضطهاد ، وعلى الرغم من الضنك الذى كانوا يعيشون فيه ، كانوا يتناسلون ويتكاثرون ، فأقلق تكاثرهم فرعون ، فراح يفكر فيما يفعله ليستأصل هؤلاء الذين هيجوا مخاوفه ، وليوقى نفسه ومملكته ثورة العبيد .

واهتدى فرعون الى فكرة ، فجمع القوابل من نساء اهل مملكته ، فقال لهن :

— لا يولدن على ايديكن غلام من بنى اسرائيل ، الا قتلتموه .

وذاع ذلك الأمـر فى مصر ، فغشى بنى اسرائيل حـزن عميق .

— ٢ —

راح رجال فرعون والقـوابل يدورون على الحبـالى من بنى اسرائيل ، ويعلمون ميقات وضـعهن ، فـلا تلد امـرأة ذكـرا الا ذبحـه أولئك الذباحون ، وحملت امـرأة صالحة من العبرانيات ، وكانت فى قصر فرعـون ، فـركبها الهـم ، كانت تخشى أن تضـع ولدا فيذبحه المصريون ، فاحـترزت واخذت تخفى امارات الحمل ، فلما جاءها المخاض وضـعت

طفلها دون أن تلتمس أحدا لمعاونتها . وأحبت المرأة وليدها ، وأجج ذلك الحب الخطر المسلط عليه ، أنها لتخشى أن تفقده فى أى لحظة . ان هو الا أن يرفع صوته بالبكاء ، حتى يقتحم رجال فرعون عليها مخدعها ، وينزعوه من بين أحضانها ، ليذبحوه ذبح الأنعام .

كانت المرأة وابنتها الكبرى التى تعمل بالقصر تتناوبان رعايته ، وفى ذات ليلة وضعت الأم وليدها فى حجرها ، ورفعت عينيها الى السماء تلتمس من الله عونه ، فأوحى اليها :

ــ أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين .

ومرت ثلاثة أشهر ، والأم ترعى ابنها وخوفها يتزايد ، وفطنت الى أنها لن تستطيع أن تخفيه عن العيون المتربصة بأبناء اليهود . فعزمت أن تنفذ ما أوحى به اليها ، فجاءت بسفط من البردى ، ووضعت ابنها فيه ، ثم ألقت به فى النهر ، وما حمله التيار وبعد عنها حتى همت بالعدو خلفه ، والبحث عنه ، لولا أن ربط الله على قلبها ، وألهمها الصبر والامتثال لأمره .

ونادت أخته وقالت لها :

ــ اتبعى أثره ، لتعلمى خبره .

فسارت أخته على الشاطىء ، وهى ترمقه من طرف عينيها ، وتتظاهر أنها غافلة عنه ، حتى لا ينكشف أمرها ، وحمله التيار وانطلق الى جناح القصر المعد للحريم .

— ٣ —

خرجت آسية امراة فرعون وجواريها يغتسلن فى النيل ، فلمحن بين الأشجار سفطا به غلام صغير ، فهرعت احداهن اليه وانتشلته ، فارتفع بكاء الطفل ، ومس أذنى آسية ، فقالت :

ـــ هذا بكاء طفل صغير .

وجاءت الجارية اليها تحمله وتقول :

ـــ هذا طفل القى به اهله فى النيل .

نظرت آسية اليه ، فوقعت عليه رحمتها ، واحبته ، فضمته اليها وقبلته ، فلما رأت أخته ذلك اكتنفتها راحة ، ونزل بقلبها اطمئنان ، ودنت تترقب ما يكون .

ودخلت آسية الى القصر ، وجواريها حولها ، واقبل فرعون ، فلما رأى الطفل تحركت غلظته ، فقال :

ـــ ما هذا ؟

ـــ طفل التقطناه من اليم .

ـــ انه ابن من ابناء العبرانيين ، اقتلوه .

ـــ ارحمه يا مولاى ، انه طفل صغير .

ـــ اقتلوه .

ـــ قرة عين لى ولك . لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وظلت تدافع عن الطفل ، وتلتمس من فرعون أن يبقيه ، واستمرت ترجوه وتلحف فى الرجاء وتستوهبه اياه ، حتى لان لتوسلاتها ووهبه لها .

فرحت آسية بالطفل الذى استحيته ، وحملته وضمته اليها وقد تحركت فيها احساسات الأمومة الرءوم ، وبكى الطفل فالتمست له المرضعات ، فلم يأخذ من أحد من النساء ، وجعل النساء يفدن ، لينزلن عند فرعون فى الرضاع ، ولكن الطفل استمر فى بكائه وامتناعه عن أن يلتقم ثدى احداهن .

واشفقت آسية على الطفل ، وحارت فى أمره ، فدنت أخته منها ، وقالت لها :

ـ هل ادلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟

فنظرت آسية اليها وقد شاع فى وجهها أمل ؟

ـ أتعرفين اهل هذا الغلام ؟

ـ لا أعرفهم ، ولكن أعرف امرأة صالحة ، فلعله يأخذ ثديها .

ـ اذهبى ، وائتى بها .

وذهبت أخته تحث الخطا ، وقلبها يخفق فى مرح ، حتى اذا بلغت غرفتها فى القصر صاحت بأمها :

ـ ابشرى ، جاءك الفرج ! انهم يلتمسونك لترضعيه .

وانطلقت الأم يلفها اضطراب ، ولكنه اضطراب لذيذ يخدر المشاعر والحواس ، ودخلت على وليدها ، وكادت فرحتها تفضح خبيئة نفسها ، وكادت تغمغم فى وجد ، وهى تضمه الى الصدر الملهوف : « ولدى ، ابنى الحبيب » وكادت تصرح به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين .

وناولته ثديها ، فأخذه ، فأشرق وجه آسية بالفرح . ونزل بقلب أمه سكينة ، وأطرقت برأسها شكرا لله ، فقد رده الله اليها ليكون من المرسلين .

— ٤ —

جلست آسية تنظر الى الطفل الذى تعلق به فؤادها ، والذى فجر فى نفسها ينابيع الحنان والرأفة ، فشساعت فى نفسها نشوة ، وأرادت أن تدعوه باسمه ، ولكنها لم تعرف بماذا تدعوه ، وفكرت فى أن تطلق عليه اسما ، انها وجدته بين الماء والشجر ، وراحت تردد بلغتها ماء وشجر : موشا ، ماء وشجر : موشا ، لماذا لا تدعوه موشا ، (ماء وشجر) ، واستراحت الى ذلك ، فنهضت الى الغلام تناغيه :

ـ تعال يا موسى ، تعال يا موسى يا حبيبى .

وحملته وقبلته وجعلت تداعبه ، وهى تحس احساسات فياضة صافية طاهرة .

وترعرع موسى فى قصر فرعون ، يركب مراكب فرعون ، ويلبس ما يلبس فرعون ، وكان الخدم يدعونه موسى بن فرعون ، ولكن موسى كان يعرف أهله ، وكان يعرف انه من بنى اسرائيل ، وكانت أسعد أويقات صباه تلك السويعات التى يمضيها مع أخيه هارون .

ولما بلغ اشده واستوى آتاه الله حكما وعلما ، وفى ذات يوم أقبل موسى الى القصر ، ولما لم يجد فرعون سأل عنه ،

فقيل له انه خرج الى منف ، فركب موسى فى اثره ، ودخل منف فى نصف النهار . وقد أغلقت أسواقها ، فبينما هو يمشى فى ناحية المدينة ، اذ رأى رجلين يقتتلان ، أحدهما من بنى اسرائيل ، والآخر من قصر فرعون ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى ، فقضى عليه ، قال :

ـــ هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضلُ مبين .

ورفع وجهه الى السماء وقالَ :

ـــ رب انى ظلمت نفسى ، فاغفر لى .

فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم ، قالَ :

ـــ رب ، بما أنعمت على ، فلن أكون ظهرا للمجرمين .

ـــ ٥ ـــ

أصبح الصباح ، فخرج موسى الى المدينة خائفا يترقب ، انه يخشى أن يكون فرعون وملؤه قد علموا أن هذا القتيل انما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى اسرائيل ، انهم لو علموا ذلك لشكوا فى انه منهم ، ولتعذر عليه أن يبقى فى القصر ، ليعمل على ما فيه مصلحة بنى اسرائيل .

وفيما هو منطلق يتلفت ، رأى ذلك الاسرائيلى الذى نصره بالأمس يقاتل رجلا آخر من المصريين ، فلما رأى موسى استصرخه :

ـــ موسى ، انصرنى يا موسى .

فبان في وجه موسى الغضب ، وقال للاسرائيلي
ـ انك لغوى مبين .

وأقبل نحوهما ، فلما لمح الاسرائيلي الشر في عيني موسى فرق منه ، وفر من وجهه وهو يقول :

ـ اتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ، ان تريد الا ان تكون جبارا في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين .

سمع المصري ما قاله الاسرائيلي ، فذهب الى القصر ، وافشى أن موسى هو الذى قتل الرجل ، وبلغ النبأ مسامع فرعون ، فغضب وصاح :

ـ خذوه واقتلوه بجنايته .

وكان احد انصار موسى عند فرعون لما أصدر أوامره بقتله ، فخرج يغذ السير ، وجاء الى موسى رجل من اقصى المدينة يسعى ، وقال له :

ـ ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج .

فوقف موسى يتلفت في حيرة ، لا يدرى الى أين يذهب ، انه لو بقي في مصر لقبض عليه فرعون ، ونفذ فيه القتل ، ليس أمامه الا الخروج ، فانطلق هاربا لا يلوى على شيء .

سار موسى في حلكة الليل ، وفي رائعة النهار ، يضرب في الصحراء لا يسكت صراخ بطنه الا ورق الشجر ، ولا يطفيء ظماه الا ما يصادف من الآبار ، لم يكن يعرف طريقه لأنه لم يخرج قبل ذلك من مصر ، ولما توجه تلقاء مدين قال :

ـ عسى ربى أن يهديني سواء السبيل .

بلغ موسى مدين ، وقد نال منه التعب والجوع ، ورأى شجرة فوقف تحتها يستظل بها ويستريح ، ومد بصره فإذا جماعة من الرعاة يسقون ، فذهب ليرد الماء فوجد من دونهم امرأتين تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس ، فاقترب موسى منهما وقال :

— ما خطبكما ؟

قالتا :

— لا نسقى حتى يصدر الرعاة ، وأبونا شيخ كبير .

نظر موسى فوجد الرعاة قد وضعوا على فم البئر صـخرة عظيمة ، فتقدم فرفع الصـخرة وحده ، وكان لا يرفعهـا إلا عشرة ، ثم اسـتقى لهما ، وسـقى غنمهما ، ورد الحجر كما كان .

وتولى موسى إلى ظل الشجرة ، وبطنه لاصق بظهره من الجوع ، وقال :

— رب ، إنى لما أنزلت إلى من خير فقير !

وعادت الفتاتان إلى أبيهما ، فلما رآهما قال لهما :

— ما بالكما قد عدتما اليوم سريعا ؟

قالتا :

— عاوننا رجل كريم على سقى غنمنا .

وقالت صفورة ، ابنة الشيخ الصغيرة :

ـ يلوح يا أبى انه جائع مكدود .

فأمرها الشيخ أن تذهب اليه فتدعوه ، فجاءت تمشى على استحياء ، حتى اذا بلغته وهو فى ظل الشجرة ، قالت له :

ـ ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

قام معها ، وقال لها :

ـ امضى .

فمشت أمامه ، فضربتها الرياح ، فبدت مفاتن جسمها ، فقال لها :

ـ امشى خلفى ودلينى على الطريق ان أخطأت .

واستمر فى سيره حتى دخل على الشيخ ، وراح يقص عليه ما حدث له فى مصر . فلما انتهى من قصته ، قال الشيخ له :

ـ لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين .

وقدم الطعام لموسى ، فلما شبع قام لينصرف ، فقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

ـ يا أبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمين .

فقال لها الشيخ :

ـ وما علمك بهذا ؟

فقالت صفورة :

ـ انه رفع صخرة لا يطيق رفعها الا عشرة .

ـ وما أدراك بأمانته ؟

ـ انى مشيت قدامه ، فلم يحب أن يخوننى فى نفسى ، وأمرنى أن أمشى خلفه .

فذهب الشيخ الى موسى وقال له :

ـــ انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين ، على ان تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد ان اشق عليك ، ستجدنى ان شاء الله من الصالحين .

فقال له موسى :

ـــ ذلك بينى وبينك ، ايما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل .

وتزوج موسى من صفورة ، وقد أجر نفسه للشيخ ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه ، وطعام بطنه .

— ٧ —

رعى موسى للشيخ عشر سنين ، وكان يعاوده فيها الحنين الى أهله ، فلما أتم الأجل قال لصفورة :

ـــ اشتقت الى امى والى أخى هارون ، فتأهبى للخروج الى مصر ، فان لى فيها شيعة وأنصارا .

وتأهب موسى وزوجته واولاده للخروج ، حتى اذا آذنت ساعة الرحيل ودعوا الشيخ وانطلقوا يضربون فى البيداء ، حتى بلغوا جانب الطور الأيمن فى عشية شاتية شديدة البرودة .

وجاء الليل ، وأرخى سدوله ، وأخذت السماء تبرق وترعد وتمطر ، فراح موسى يدور ببصره فى الفضاء ، فآنس من جانب الطور نارا ، فقال لأهله :

ـــ امكثوا انى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

وانطلق موسى فى وادى طوى يتوكأ على عصـــاه صــوبه النار ، فلما جاءها نودى أن بورك من فى النـــار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . فخــاف موسى ، وفر مفزوعا ، ولما افرخ روعه عاد ثانيــة الى النار ، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : ان يا موسى انى انا الله رب العالمين .

وفر موسى مرعوبا ، وما بعد عن النار حتى عاد اليه روعه ، فدنا منها ، فلما أتاها نودى :

ـــ يا موسى ، انى انا ربك فاخلع نعليك ، انك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، اننى أنا الله لا اله الا انا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى ، ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .

وخلع موسى نعليه ولم يذهب عنه روعه ، فقال له الله مؤنسا :

ـــ وما تلك بيمينك يا موسى ؟

ـــ هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى .

قال :

ـــ القها يا موسى .

فالقاها فاذا هى حية تسعى ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . فناداه ربه :

ـــ يا موسى لا تخف ، انى لا يخاف لدى المرسلون ، أقبل ولا تخف انك من الآمنين .

فلما رجع ، ورای الحية تسعى ، بقی على خوفه ، فقال الله له :

ــ خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى .

فمد يده الى الحية فاذا هى قد عادت عصا كما كانت ، وقال له الله :

ــ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب .

فوضع موسى يده فى جيبه وأخرجها ، فاذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، وشغل فكره بالعصا التى صارت حيـــة تسـعى ، وبيده التى أضاءت كالبدر ، فقال الله له :

ــ فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه ، انهم كانوا قوما فاسقين .

وعلم موسى ان الله أرسله الى فرعون الطاغية ، فقال :

ــ رب ، انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى ، انى أخاف أن يكذبون .

قال :

ــ سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون اليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

ــ اذهب الى فرعون انه طغى .

فقال موسى فى ابتهال :

ــ رب ، اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى .

وسار موسى واهله حتى دخلوا مصر خلسة ، وذهب الى أمه ، فقرت به عينا ، وانتظر حتى جاء هـــارون ، فقام الاخوان يتعانقان ، وراح موسى يقص على أخيه قصته ، ثم قال له :

— يا هارون انطلق معى الى فرعون ، ان الله قد أرسلنا اليه .

فقام هارون ليـذهب مع أخيــه . فهبت أمهما اليهمــا تصيح :

— انشدكما الله أن لا تذهبا الى فرعون فيقتلكما .

فقال موسى لأمه :

— لا تخافى ولا تحزنى ، ان الله معنا ، لقد قال : اذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون فقولا : انا رسول رب العالمين ، أن ارسل معنا بنى اسرائيل .

فقالت له أمه :

— أخشى عليكما من فرعون .

فقال لها موسى :

— اطمئنى ، لقد بعثنى الله لأخلص بنى اسرائيل من العذاب ن .

وتحرك موسى وهارون للذهاب ، فقالت لهما أمهما :

— انتظرا حتى الصباح .

— سنذهب اليه الآن .

وذهبا الى القصر ، والتمسا مقابلة فرعون ، فقيل لهما :

— ماذا تريدان ؟

— أنا رسول رب العالمين .

وقيل لفرعون ان بالباب مجنونا زعم انه رسول رب العالمين . فقال فرعون :

— ادخلوه . .

ودخل موسى وهارون على فرعون ، فنظر فرعون الى موسى مليا وقال :

— ماذا تريد ؟

— انا رسول رب العالمين ؟ ان ارسل معنا بنى اسرائيل .

وعرف فرعون موسى ، فقال له فى استخفاف :

— الم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، وانت من الكافرين .

عرف فرعون موسى ، وتذكر أنه قتل رجلا من رجاله وفر ، وأنه يأتيه الساعة ليقول له انه رب العالمين ، فجعل يرمقه فى زراية ، فقال موسى :

— فعلتها اذا وانا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما ، وجعلنى من المرسلين .

قال فرعون :

— وما رب العالمين ؟

قال :

— رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين .

قال لمن حوله :

— الا تسمعون ؟

قال موسى :

ـــ ربكم ورب آبائكم الاولين .

قال فرعون لمن حوله :

ـــ ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون .

قال موسى مستأنفا حديثه :

ـــ رب المشرق والمغرب وما بينهما أن كنتم تعقلون .

وتضايق فرعون ، فحشر فنادى فقال :

ـــ انا ربكم الاعلى . يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى .

ـــ ٩ ـــ

وعاد موسى وهارون يلتمسان الاذن لهما بالدخول على فرعون ، ولم يجرؤ أحد أن يرفع الى فرعون طلبهما ، وفى يوم ذكر له أصحابه ان الرجلين اللذين جاءا يدعوانه الى الههما واقفان ببابه ، فأمر بالسماح لهما بالدخول ، فلما مثلا بين يديه ، قال موسى :

ـــ يا فرعون ، انى أدعوك الى الله .

فقال فرعون فى غلظة :

ـــ لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين .

قال موسى :

ـــ أو لو جئت بشىء مبين ؟

ـــ فأت به ان كنت من الصادقين .

فألقى عصاه ، فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين .

فنظر فرعون مدهوشا ، فقال له موسى وهارون :

ـــ انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى .

وسكن روع فرعون ، فعاد الى استخفافه ، قال :

ـــ فمن ربكما يا موسى ؟

قال :

ـــ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال :

ـــ فما بال القرون الأولى ؟

قال :

ـــ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

فقال فرعون فى غيظ :

ـــ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

قال :

ـــ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

تأهب المصريون للعيد ، وخرجوا مبكرين وانطلقوا الى الساحة الكبرى ، فان اليوم هو اليوم الذى جعله موسى بينه وبين فرعون موعدا . وجاء السحرة الذين جمعهم فرعون من أنحاء مملكته ، واصطفوا صفوفا ، وجاء فرعون ووزيره هامان وعلية القوم ، وتصدروا المكان ، وقال فرعون للسحرة :

— ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى .

وخرج موسى ومعه أخوه يتكىء على عصاه ، حتى اتى الجمع ، وفرعون فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته ، فاقبل موسى على السحرة وقال لهم :

— ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا ، فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى :

فاختلف السحرة فيما بينهم ، فقال قائل منهم :

— هذا كلام نبى .

وقال قائل :

— هذا ساحر .

وقال بعضهم :

— هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من ارضكم بسحرهما .

واقبلوا على موسى وقالوا :

— يا موسى ، اما أن تلقى واما ان نكون أول من القى .

قال :

ـــ بل القوا .

فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . فنظر موسى فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله اليه :

ـــ موسى : لا تخف ، انك أنت الأعلى ، والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقى موسى عصاه ، فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا :

ـــ آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

وثار فرعون ، وزاد فى ثورته أن موسى هزمه على مرأى من الملأ ، وان السحرة سجدوا لإلهه والناس ينظرون ، فخشى أن تشتعل الفتنة ، وأن يفلت زمام الشعب من يده ، فقال للسحرة .

ـــ آمنتم له قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .

وكانت حلاوة الايمان قد مست قلوب السحرة ، فلم يفزعوا لما قال فرعون ، بل قالوا له فى اطمئنان :

ـــ لن نؤثرك على ما جاء من البينات والذى فطرنا ،

فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحيـــاة الدنيـــا ، أنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأتيه مؤمنـــا قد عمل الصـــالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى .

— ١١ —

وضاق فرعون بموسى ذرعا ، انه يدعو الناس الى اله غير آلهـــة الفراعين ، وانه يفتن الفقراء والمستضعفين ، وان الناس يلتفون به ويعجبون ، وراح فرعون يفكر فيما يفعله وقد علاه الهم ، وقال الملأ من قوم فرعون :

— أتذر موسى وقومه ليفســـدوا فى الأرض ، ويـــذرك وآلهتك ؟ .

قال :

— ســـنقتل أبناءهم ، ونســـتحيى نساءهم ، وانا فوقهم قاهرون .

وأمر فرعون بقتل أبناء بنى اسرائيل ، فنزل بهـــم كرب شديد ، فقال موسى لقومه :

— استعينوا بالله واصبروا ، ان الأرض يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وزاد اضـــطهاد فرعون لهم ، فجـــاءوا موسى يقولون فى ضيق :

ـــ أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا .

قال :

ـــ عسى ربكم ان يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون ؟

وجلس فرعون على عرشه مهموما ، ان قتل ابناء اليهود لم يرحه من متاعب اليهود ، فطن الى انه لن يستريح مادام موسى يسعى فى الأرض ، فالتفت الى من عنده وقال :

ـــ ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم او ان يظهر فى الأرض الفساد .

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه :

ـــ اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهـــدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا .

فقال فرعون فى اعتداد :

ـــ ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد .

وقال الذى آمن :

ـــ يا قوم انى أخاف عليـــكم مثل يوم الاحزاب ، مثـــل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد ،يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات

الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .

والتفت فرعون الى وزيره وقال :

ـــ يا هامان ، ابن لى صرحا لعلى ابلغ الأســباب أسباب السموات ، فاطلع الى إله موسى ، وانى لأظنه كاذبا .

فنظر هامان الى فرعون وفى عينيه حيرة ، فقال فرعون فى كبرياء :

ـــ ما علمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى .

وقال الذى آمن :

ـــ يا قوم اتبعونى اهدكم سبيل الرشاد . يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب .

ويا قوم مالى ادعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار ، تدعوننى لأكفر بالله ، واشرك به ما ليس لى به علم ، وانا ادعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا الى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى الى الله ، وان الله بصير بالعباد .

دخل موسى على فرعون يطلب منه تخليص بنى اسرائيل من العبودية وأن يرسلهم معه ليتركوا مصر ، فقال له فرعون :

— اذا تركتهم لك ، فمن يحرث لى أرضى ، ومن يسقى زرعى ، ومن يصنع لى اللبنات لأبنى صرحى ، لا يا ساحر لن أطلق لك عبيدى ، فادع ربك ليخلصهم من يدى .

وأخذ الله مصر بالسنين ونقص من الثمرات ، فتفشت المجاعة فى البلاد ، وانتشر الجوع ، وخشى فرعون العواقب ، فبعث الى موسى وقال له :

— ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

— واذا رفعه عنكم ، أترسل معى بنى اسرائيل ؟

— أرسلهم معك .

ودعا موسى ربه ، فجاء الخصب وعم الرخاء ، ودخل موسى على فرعون يستنجزه وعده ، فأبى فرعون واستكبر وقال له :

— ما أصابنا الجدب الا بشؤمكم ، وما فعل الهك لنا شيئا ، اخرج من عندى فما كنت لأطلق لك عبيدى .

وهطلت الأمطار غزيرة ، فأتلفت الزرع ، وحاق الضيق بالبلاد ، وفزع فرعون وبعث الى موسى وقال له :

— ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

فدعا موسى ربه ، فرفع مقته عن البلاد ، وذهب موسى الى فرعون يستنجزه وعده ، فأبى فرعون وتكبر وقال :

— لن اتركهم لك حتى ابنى صرحى وأصعد الى السماء وأسمع ربك الذى يأمرنى بأن ارسلهم معك .

وسلط الله الجراد ، فلم يترك زرعا ولا ثمارا ، ولا سبدا ولا لبدا ، فجزع فرعون ، وفزع الى موسى :

— ادع لنا ربك يرفع عنا هذا البلاء .

— او ترسل بنى اسرائيل معى ؟

— أرسلهم .

فلما رفع الله عنهم نقمته ، عاد فرعون الى الاستكبار وقال لموسى :

— مهما تأتنا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وسلط الله عليهم القمل ، فسقطوا فريسة المرض الفتاك ، وانتشر فيهم الموت ، فكان يحصدهم حصدا ، فجزع فرعون وفزع واهله الى موسى ، وقالوا :

— يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل .

فلما كشف الله عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه ، اذا هم ينكثون ، فأرسل الله عليهم الضفادع والدم ، فهرعوا الى موسى وقالوا :

— يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، اننا لمهتدون .

فلما كشف الله عنهم العذاب اذا هم ينكثون ، ونادى فرعون فى قومه ، قال :

— يا قوم ، اليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى افلا تبصرون . أم أنا خير من هـذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا القى عليه أسـورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين .

فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين .

— ١٣ —

ما آمن لموسى الا ذرية من قـومه على خوف من فـرعون وملئهم أن يفتنهم ، وان فـرعون لعال فى الأرض ، وانه لمن المسرفين .

ونفد صبر بنى اسرائيل ، فالمحن تنزل بهم ، والبـلايا تتساقط عليهم ، ورجال فرعون يسومونهم العذاب ، ففزعوا الى موسى يطلبون منه أن يدعو الله ليخلصهم من محنتهم العظيمة ، فقال لهم :

— يا قـوم ، ان كنتم آمنتم بالله فعليـه توكلوا ، ان كنتم مسلمين .

فقالوا :

— على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين .

فـأوحى الى مـوسى واخيـه ان تبـوآ لقـومكما بمصر بيـوتا ، واجعـلوا بيوتكم قبـلة واقيمـوا الصـلاة وبشر المؤمنين .

فراح موسى وهارون ينفذان وحى الله ، فاتخذوا لبنى اسرائيل بيوتا متميزة فيما بينهم ، ليكونوا على اهبة الرحيل اذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض .

وقال موسى :

ــ ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا أطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

قال :

ــ لقد اجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون .

وتأهب بنو اسرائيل للخروج سرا ، ولكن كيف يخرجون وهم ارقاء ، للأرض ملاصقون ؟ ذهب موسى واكابر بنى اسرائيل الى فرعون يرجونه فى ان يأذن لبنى اسرائيل فى الخروج الى عيد لهم ، فلم يقبل ، فظلوا به يرجون ويلحون فى الرجاء حتى قبل وهو كاره .

فرح بنو اسرائيل لقرب الخلاص ، فراحت الاسرائيليات يستعرن حليا من جاراتهن المصريات للتزين بها فى العيد ، فاعرنهن شيئا كثيرا ، ولما جن الليل ، ونشر رداءه الأسود يحجب كل شيء ، خرج بنو اسرائيل يتسللون ، واجتمعوا خارج المدينة وانطلقوا طالبين الشام .

واغذوا السير ، ليفروا من الطاغية الذى استعبدهم واذلهم ، وانطلقوا مهطعين لا يلوون على شيء ، واقترب مؤمن آل فرعون من موسى وقال له :

ــ يا موسى ، اين امرت .

ــ البحر .

وجاء الموكلون باذلال بنى اسرائيل الى القصر يسعون ويقولون :

ــ خرج بنو اسرائيل الى العيد ، ولم يعودوا الى اعمالهم ، فضياع الملك لم يعد فيها من يحرثها ومن يزرعها ومن يجنى ثمارها ، وذاع فى مصر ان موسى قد خرج ببنى اسرائيل ، فخرج الناس من دورهم فزعين على حليهم التى استعارها منهم اليهود ، وهاجت البلاد وماجت وجمع فرعون جنوده ، وانطلق فى اثر الفارين ليعيدهم الى اراضيه ، ولينقذ من ايديهم ذهب البلاد الذى سلبوه .

ملأ الحنق فرعون ، واشتد غضبه ، فشرع فى استحثاث جيشه ليلحق الهاربين ويمحقهم ، فأوحى الله الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون .

فراح موسى يجد السير ، ولكن ما أن اشرقت الشمس حتى كان جنود فرعون يلوحون فى الأفق القريب ، وتراءى الجمعان ، ولم يبق الا المقاتلة والمجادلة والمحاماة ، فتلفت أصحاب موسى وهم خائفون فالبحر أمامهم والجبال الشاهقة عن يسرتهم وعن أيمانهم ، فوقع الذعر فى قلوبهم وهرعوا الى موسى يصرخون فزعا :

ــ انا لمدركون .

فقال موسى فى ثبات :

ــ كلا ان معى ربى سيهدين .

وتقدم الى البحر وأمواجه تتلاطم كالجبال ، وقال :

ــ ههنا أمرت .

وجعل بعض ارجال يقتحمون بأفراسهم البحر مرارا ليسلكوه ، ولكنهم كانوا يرتدون خائبين ، وتفاقم الأمر ،

واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، فعند ذلك اوحى الله الى موسى ان اضرب بعصاك البحر ، فلما ضربه انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فانحدر بنو اسرائيل فيه مسرعين ، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه ، وكان ذلك عند قدوم اول جيش فرعون اليه ، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود سيرته الأولى ، فأوحى الله اليه :

ــ واترك البحر رهوا ، انهم جند مغرقون .

واقبل فرعون وهو على حصانه حتى وقف على شــفير البحر ، فلما رآه منفلقا وقف ينظر مدهوشــا ، وفكر فى أن يحجم ، ولكنه لم يشأ ان يظهر أمام جنوده رعديدا ، فاقتحم البحر وانطلق وتدفق جنوده خلفه ، حتى اذا كانوا جميعا فى البحر ، ارتطم البحر كما كان ، وأخذت الأمواج تتقاذف الجنود ، ورفعت فرعون وخفضته ، حتى اذا أدركه الغرق قال :

ــ آمنت أنه لا اله الا الــذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين . وآمن ولم يكن ينفعه إيمانه ، وكان هو وجنوده من المغرقين ، وابتلعهم اليم ، فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظرين .

انتقم الله من فرعون وجنوده ، فأغرقهم في اليم ، لانهم كذبوا بآياته ، وكانوا عنها غافلين ، وجاوز بنو اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم ، فجاءوا الى موسى وقالوا له :

— اجعل لنا الها كما لهم آلهة .

فغضب موسى وقال لهم :

— انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون .

اغير الله ابغيكم الها وهو فضلكم على العالمين ؟ !

وسار موسى بقومه صوب بيت المقدس ، انه لا يستطيع ان يدخلها حتى يقاتل اهلها ، فقال :

— يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت احدا من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على ادباركم ، فتنقلبوا خاسرين .

قالوا :

— يا موسى ، ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون .

قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما :

— ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين .

قالوا :

ــ يا موسى ، انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا اننا ههنا قاعدون .

قال :

ــ رب ، انى لا املك الا نفسى واخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

قال :

ــ فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين .

وبقى بنو اسرائيل فى التيه ، فى صحراء سيناء القاحلة الماحلة ، وراحوا يبحثون عن الماء ، فلم يجدوه ، فجاءوا الى موسى يفزعون اليه ، فاستسقى موسى لقومه ، فقال الله له :

ــ اضرب بعصاك الحجر .

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان اسباط اليهود اثنى عشر سبطا ، فكان لكل سبط عين تنبجس . واحسوا الجوع ، فهرعوا الى موسى يلتمسون الطعام ، فدعا موسى ربه أن يطعمهم فأنزل عليهم المن والسلوى ، وضجر كثير من بنى اسرائيل بحياتهم الجديدة ، فجاءوا الى موسى ، وقالوا له :

ــ يا موسى ، لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك أن يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .

فغضب موسى ، وقال لهم فى سخرية :

— اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم .

فما ان صكت سخريته آذانهم ، حتى زاغت أبصارهم ثم اطرقوا فى خجل شديد .

— ١٥ —

وواعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون :

— اخلفنى فى قومى وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين .

وانطلق موسى لميقات الله الى جبل طور سيناء ، فكلمه ربه ، فناداه وناجاه ، وقربه وأدناه ، فطمع موسى فى أن يرى الله ، فقال :

— ربى ، أرنى انظر اليك .

قال :

— لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال :

— سبحانك تبت اليك وانا أول المؤمنين .

قال :

— يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

وكتب الله له فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا

لكل شيء ، وتنساول موسى الالواح ، وراح يقرا ما كتب فيها وقد أرهفت حواسه : ان الله يأمره أن يسبحه ويقدسه لا اله الا هو ، ولا يشرك به شيئا ، ولا يقتل النفس التى حرم الله ، ولا يحلف باسمه كاذبا ، ويأمره بالمحافظة على السبت ، وأن يكرم أباه وأمه ، ليطول عمره فى الأرض ، ولا يقتل ، ولا يزنى ، ولا يسرق ، ولا يشهد على صاحبه شهادة زور ، ولا يمد عينه الى بيت صاحبه ، ولا يشتهى امرأة صاحبه ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا من الذى لصاحبه .

وقال الله لموسى :

ــ ما أعجلك عن قومك يا موسى ؟

قال :

ــ هم أولاء على اثرى ، وعجلت اليك رب لترضى .

قال :

ــ فانا قد فتنا قومك من بعدك ، واضلهم السامرى . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا .

ــ ١٦ ــ

ذهب موسى لميقات ربه ، وكان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ، فلما انقضت تلك الليالى ولم يعد ، جاء السامرى وقال لهم :

ــ ان موسى قد احتبس عنكم ، انه ليس براجع اليكم ، فينبغى لكم أن تتخذوا الها .

وفكر بنو اسرائيل فيما يقــول السامرى ، انهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم الها كما للأقوام الذين مروا بهم آلهة ، ولكن موسى أبى وها هو ذا موسى قد ذهب ، فما الذى يحول بينهم وبين صنع الاله ، وأعجبتهم الفكرة ، فوافقوا السامرى على أن يصنعوا بأيديهم الها ..

كان السامرى صــائغا ماهرا ، فأخــذ منهم الحــلى التى استعاروها من المصريين ، وصنع لهم عجلا له خوار ، فاجتمع القوم يعبدونه ويقولون :

ــ هذا الهكم واله موسى فنسى .

فقال لهم هارون :

ــ يا قوم . انما فتنتم به ، وان ربكم الرحمن .. فاتبعونى واطيعوا أمرى .

قالوا :

ــ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى .

ورجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، فبلغ سمعه أصوات عزف ، فانطلق الى الصوت ، فاذا القوم يعزفون ويرقصون حول العجل . فصاح فى غضب :

ــ بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم .

والقى الالواح وقال :

ــ يا قوم الم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدى !

قالوا كاذبين :

ــ ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ، فقذفناها .

فتضايق موسى من هؤلاء الذين تحــرجوا من تلك حلى

المصريين التى سلبوها ، ولم يتحرجوا من عبـادة العجـل ، وذهب يبحث عن هارون ، فلما وجده أخذه برأسه يجره اليـه ويقول :

ـ يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضـلوا أن لا تتبعن ، افعصيت أمرى ؟

ـ يابن أم ، ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين .

وجره موسى من شعره وهو يقول :

ـ هلا قاتلتهم اذ علمت انى لو كنت فيهم لقاتلتهـم على كفرهم ؟

ـ يابن أم ، لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى .

فرفع موسى وجهه الى السماء وقال :

ـ رب اغفر لى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك وأنت ارحم الراحمين .

وبعث الى السامرى ، فلما جاء قال له :

ـ فما خطبك يا سامرى ؟

قال :

ـ بصرت بما لم يبصروا به ، بصرت بجـبريل ، فقبضت قبضـة من أثره ، فنبذتها وطرحتهـا فى العجل ، فأصبح له خـوار .

ـ ولماذا فعلت ذلك ؟

ـ كذلك سولت لى نفسى .

قال :

ـ اذهب ، فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس . وأن

لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفه فى اليم نسفا .

ونسف موسى العجل وقال لقومه :

ـــ انما الهكم الله الــذى لا اله الا هو ، وســـع كل شىء علما .

وأطرق بنو اسرائيل خجلا ، فقال موسى لهم :

ـــ يا قوم ، انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا انفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم .

فأصبحوا وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم . ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين لربهم يرهبون .

ورأى بنو اسرائيل أن يستغفروا ربهم ، فكلموا موسى ، فاختـــار موسى ســـبعين رجـــلا من علمـــاء بنى اسرائيل ، وانطـــلقوا ليعتذروا عن بنى اسرائيل ، واقتربوا من الجبـــل ، فصعد موسى يكلم ربه ، وصعد بنو اسرائيـــل يســـمعون ، وجعل موسى يعتذر عن عبادة العجـــل ، ثم رجع الى قومه ، فقالوا له :

ـــ لن نؤمن لكَ حتى نرى الله جهرة .

فانقضت عليهم صاعقة من السماء ، فماتوا جميعا . فقال موسى لربه :

ـــ رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنـــا بمـــا فعـــل الســـفهاء منا ، ان هى الا فتنتـــك ، تضـــل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنـــا وأنت خير الغافرين .

قال :

ـ عذابي أصيب به من اشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء .

وظل موسى يناجي ربه حتى بعثهم من بعد موتهم .

ـ ١٧ ـ

اصبح القوم فاذا بشيخ مقتول ومطروح فى مجمع الطرق ، واذا بناس ملتفون حوله يتخاصمون فيه ، كل منهم يدعى ان الآخر قتله ، وجاء ابن أخيه يصرخ ويتظلم ، فقالوا :

ـ مالكم تختصمون ولا تأتون نبى الله ؟

فجاء ابن اخيه ، وشكا امر عمه الى موسى ، فقال موسى :

ـ انشد الله رجلا عنده علم من أمر القتيل الا أعلمنا به .

فلم يقل احد شيئا ، وحار الناس فى امر القتيل ، فقالوا لموسى :

ـ يا موسى ، اسأل ربكَ فى هذه القضية .

وذهب موسى يناجى ربه ، ثم عاد الى قومه وقال :

ـ ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة .

قالوا :

ـ أتتخذنا هزوا ؟

قال :

ـ أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين .

قالوا :

ـ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟

قال :

ـ انه يقول انها بقرة ، لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون ».

قالوا :

ـ ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها !

قال :

ـ انه يقول انها بقرة صفراء ، فاقع لونها تسر الناظرين ».

قالوا :

ـ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، ان البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون .

قال :

ـ انه يقول انها بقرة ، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها .

وراحوا يبحثون حتى وجدوها ، قالوا :

ـ الآن جئت بالحق .

فذبحوها وهم مترددون ، ثم أمرهم أن يضربوا القتيل ببعضها ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى ، فقام وهو تشخب أوداجه ، فسأله موسى :

ـ من قتلك ؟

قال :

ـ قتلنى ابن أخى هذا الذى يصرخ ويتظلم ، قتلنى ليرث مالى ، وسقط ميتا كما كان .

— ١٨ —

قام موسى خطيبا فى بنى اسرائيل ، فسئل :

— اى الناس أعلم ؟

فقال :

— انا .

فعتب الله عليه ، واوحى الله اليه :

— ان لى عبدا بمجمع البحرين ، هو أعلم منك .

— يا رب وكيف لى به ؟

— تأخذ معك حوتا ، فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت، فهو ثم .

فأخذ حوتا فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتـاه ، حتى اذا أتيا الصخرة وضـعا رأسـيهما فنـاما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه وسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، واستيقظا فانطلقا حتى اذا أحسا تعبا ، قال موسى لفتاه :

— آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

فذهب فتاه ، فلم يجد الحوت ، فعاد اليه وقال :

— أرأيت اذ أوينا الى الصخرة ، فانى نسيت الحوت ، وما أنسانية الا الشيطان ان اذكره ، واتخذ سـبيله فى البحر عجبا .

فعلم موسى أن ذلك المكان هو الذى سيجد عنده الرجل الصالح ، فقال :

ـــ ذلك ما كنا نبغ .

فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة ، فاذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الرجل :

ـــ وانى مقرئك السلام .

ـــ أنا موسى .

ـــ موسى نبى اسرائيل ؟

ـــ نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا .

قال :

ـــ انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟

قال :

ـــ ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك امرا .

قال :

ـــ فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان على شاطيء البحر ، فمرت سفينة ، فركبوا فيها ، فقصد الرجل العالم الى لوح من الواح السفينة وقلعه ، فقال له موسى :

ـــ قوم حملونا بغير نول ، عمدت الى سفينته فخرقتها ، لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا امرا .

قال :

ـــ ألم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟

قال :

ـــ لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من امرى عسرا .

وجاء عصفور ، فوقف على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة ، فقال الرجل العالم :

ـــ ما علمى وعلمك فى علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هم يمشيان على الساحل اذ بصر الرجل بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ رأسه بيده فقتله ، فقال له موسى :

ـــ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئا نكرا .

قال :

ـــ ألم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟

قال :

ـــ ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا .

فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فأقامه فقال له موسى :

ـــ قوم اتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، ولو شئت لاتخذت عليه أجرا .

قال :

ـــ هـــذا فـــراق بينى وبينـــك ، ســـأنبئك بتـــأويل ما لـــم تستطع عليه صـــبرا : أما الســـفينة فكانت لمســـاكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخـــذ كل ســـفينة غصبا ، اذا مر بها يدعها بعيبهـــا فـــاذا جاوزهـــم أصلحوها فانتفعوا بهـــا . ، أما الغـــلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفـــرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما

خيرا منه زكاة واقرب رحما . واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان ابوهما صالحا ، فأراد ربك ان يبلغا اشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلت شيئا من تلقاء نفسى ، وما فعلته عن أمرى ، بل بأمر ربك . ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

— ١٩ —

وكان قارون من قوم موسى وكان حسن الصوت ، اذا قرأ التوارة خشعت له القلوب ، وكان مؤمنا ، فأعطاه الله من فضله ، وآتاه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، وأحب ماله ، فشغل به عن العبادة وبغى .

وفى يوم خرج فى موكب عظيم ، فى ثياب فاخرة ، تجرى أمامه المراكب ، ويحف بموكبه الخدم والحشم ، فنظر الناس اليه مدهوشين ، وقال الذين يريدون الحياة الدنيا :

ـــ يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم .

وقال الذين أوتوا العلم :

ـــ ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون .

وجاء أناس صالحون من قومه فوجدوه عاكفا على الشراب وتحصيل اللذات ، فقالوا له :

ـــ لا تفرح بما أوتيت ، وتفخر على غيرك ، ان الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك

من الدنيا ، واحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين ».

فقال لهم قارون :

ـ انما أعطاني الله هذا لعلمه أني أستحقه ، وأني أهل له ، ولولا أني حبيب اليه لما أعطاني هذا المال الوفير .

ـ ان الله قد أهلك من قبلك من هو أشد منك قوة ، واكثر جمعا .

وظل قارون يخرج على قومه في زينة يفتنهم ، وظل في لهوه وعبثه ، فراح موسى يؤنبه ، ويدعوه الى انفاق ذلك المال في سبيل الله ، ولكن قارون صم أذنيه عن أن يسمع نصحه ، وضاق بذلك النصح ، فراح يفكر في القضاء على موسى ، فاستدعى امرأة بغيا ، واعطاها مالا ، على أن تقول لموسى وهو في ملأ من الناس : انك فعلت بي كذا وكذا .

وجاءت اليه المرأة وهو قائم في قومه ، فقالت له :

ـ يا موسى ، لقد جئت أشكو الى الناس ما فعلته بي .

فقال لها موسى :

ـ وماذا فعلت بك ؟

ـ فعلت بي كذا وكذا .

فأرعد موسى من الفرق ، وظل في اضطرابه فترة ، ثم أقبل عليها يستحلفها ، ويسألها عما حملها على افتراء ذلك البهتان الكبير ، فقالت المرأة في ندم :

ـ يا موسى ، حرضني على ذلك قارون .

فخر موسى لله ساجدا ، ثم انطلق الى قارون وقال له :

ـ ما حملك على هذا ؟

ـ يا موسى ، أما لئن كنت فضلت على بالنبوة ، فلقد

فضلت عليك بالمال ، وما انت بخير منى ، ولن شئت لتخرجن فلتدعون على ، ولادعون عليك .

فخرج موسى فى قومه ، وخرج قارون فى قومه ، فقال له موسى :

ـــ تدعو أو اكون أول من دعا ؟

فقال قارون :

ـــ أدعو انا .

ووقف قارون يدعو الله أن ينزل غضبه بموسى وقومه ، فلم يستجب الله دعاءه ، فقال موسى :

ـــ أدعو ؟

قال :

ـــ نعم ..

فقال موسى :

ـــ اللهم مر الأرض فلتطغ اليوم .

فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين .

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون :

ـــ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ! ، ويكأنه لا يفلح الكافرون .

— ٢٠ —

بقى اليهـــود فى التيه لا يفكرون فى الدخـــول الى الأرض المقدســـة ، فانها محرمة عليـــهم أربعين ســـنة ، ومـــرت السنون ، فمات هارون ، فحزن بنو اسرائيل عليه ، فقـــد كان عليهم لينا ، ومات بعده موسى ، فشـــق ذلك عليهم ، وراحوا يبكونه ، والتفوا حول فتاه يوشع بن نون ، وما انقضت سنون التيـــه حتى قادهم يوشع لحرب الجبارين والدخول الى ارض فلسطين .

داود

(واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب ،
انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى
والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب .
وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكم وفصل الخطاب)

« قرآن كريم »

— ١ —

خيمة الرب التى يعبد فيها يهوذا اله اسرائيل غارقة فى الدنس ، فالكاهن عالى اتخذ خدمة المعبد تجارة لجمع الأموال ، ووقف أبناؤه ببابها لتحصيل اللذات ، انهم يترصدون الفتيات الاسرائيليات الجميلات ليضاجعوهن قبل الدخول للعبادة والاستغفار ! وان عالى ليعلم بما يأتيه أبناؤه ، فلا يزجرهم وقد تفشت الفاحشة فى بنى اسرائيل ، وصارت طابع الجميع ؟ !

وكان يعيش فى تلك الخيمة شمويل ، ذلك الغلام الهابط من نسل النبوة ، الذى وهب حياته لعبادة الله ، فكان يدعوه بقلب طاهر ، ولولا ذلك الغلام المبارك لأنزل الله عذابه بالخيمة الغارقة فى المعاصى والمنكرات .

وفى ذات ليلة دخل شمويل لينام الى جنب الشيخ

عالى ، وفيما هو غارق فى نومه ، بلغ سمعه صوت اشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ــ شمويل .. يا شمويل .

فهب الغلام فزعا الى الشيخ فقال :

ــ يا ابتاه ! دعوتنى ؟

فنظر الشيخ الى الغلام فى انكار ، ثم قال له :

ــ يا بنى ارجع فنم .

فرجع شمويل فنام ، واذا بصوت الشيخ يدعوه :

ــ شمويل .. يا شمويل .

فهب الغلام فزعا الى الشيخ فقال :

ــ يا ابتاه ! دعوتنى ؟

فقال له الشيخ وهو نائم :

ــ ارجع فنم ، فان دعوتك الثالثة فلا تجبنى .

فرجع شمويل وما ان داعبه النوم حتى سمع صوتا اشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ــ شمويل ... يا شمويل قم .

فقام ونظر أمامه فاذا بجبريل يحادثه :

ــ اذهب الى قومك ، فبلغهم رسالة ربك ، فان الله قد بعثك فيهم نبيا ».

وظل جبريل يوحى اليه ما شاء الله ان يوحى اليه .

واصبح الصباح فقال عالى لشمويل :

ــ ماذا حدث البارحة ؟

فقال شمويل :

ــ لقد أوحى الله الى انه سينزل غضبه عليك وعلى بيتك ؟

جزاء لسكوتك على ما يفعله ابناؤك من المنكرات .

فأطرق الشيخ مليا ثم قال :

— أتوب الى الله ، وأقرب له قربانا .

— لن يكفر عن خطاياكم شيء .

فقال عالى فى استسلام :

— هو الله ، يفعل ما يشاء .

— ٢ —

صار شمويل نبيا لليهود ، يدعوهم الى عبادة الله ، وهجر السيئات ، فكانوا يصغون الى دعوته ويعجبون بهما ، ولكنهم ما كانوا يعملون على اتباعها ، فقد غرتهم الدنيا ، وصاروا عبيدا للذات .

وكانت العداوة قائمة بين الفلسطينيين وبنى اسرائيل فكانت الحرب تنشب بينهما فى كل حين ، تأهب الفلسطينيون لقتال اليهود ، واستعد بنو اسرائيل للنزال ، ودارت معركة بين الجمعين ، فانهزم اليهود وانكسروا ، وقتل منهم خلق كثير .

واجتمع شيوخ اليهود يفكرون فيما أدى الى هزيمتهم النكراء وأخذوا يتشاورون ، فأرجعوا سبب تخلى الله عنهم الى انهم خرجوا للقاء أعدائهم دون أن يأخذوا معهم التابوت المبارك ، الذى وضعوا فيه الألواح المقدسة ، وبقية

مما تـرك موسى وآل هارون . انهـم ما حـاربوا أعـداءهم ومعهـم التابوت الا أيدهم الله بنصر من عنـده ، فبعثـوا الرجال ليحضروه ، ليبـدل خوفهـم أمنا ، ويقـلب الهزيمة نصرا .

وجيء بالتابوت ، فدبت الحماسـة في صـدور اليهود ، فهتفوا مستبشرين ، فتجاوب الهتاف في أرجاء المكان ، وبلغ مسامع الفلسـطينيين ، فأشاع الخسوف بينهم ، وزاد في خوفهـم علمهـم أن اليهـود قد احضروا التابوت الـذى به ينصرون .

وقام رجل بين الفلسـطينيين يحمسـهم ويحضـهم على القتال ، فقال لهم :

ـــ يا قـوم ، لقد جاءكم أعـداؤكم بالهمم لقتـالكم ، فماذا أصابكم الوهن ، فستهزمون وتصـبحون عبيـدا لليهود بعد أن كانوا عبيدا لكم ، فحاربوا عن نسائكم وأبنائكم وأعراضكم .

وهجم الفلسطينيون على الأعداء هجوم الليوث ، ففر اليهود مفزوعين ، فقد كانت قلوبهم خواء ، وما كانت هتافاتهم المدوية للتابوت الا صيحات جوفاء ، أطلقتها الحناجر لتذهب في الهواء .

تداعى اليهود قتلى تحت سيوف الفلسطينيين ، ونجا بجلده من أطلق ساقيه للريح ، وسقط التابوت غنيمة باردة في أيدى الأعداء ، واستمر الهاربون في جريهم ، حتى أبتعدوا عن ميدان الطعن والنزال .

ودخل رجل المدينة وهو ممزق الثياب ، يعلو رأسه التراب ، وفي وجهه هلع واضطراب ، فقام الناس اليه يسألونه :

ـــ ماذا وراءك ؟

فقال وهو يتلفت كأنما يعدو خلفه مارد جبار :

ــ الهزيمة والانكسار .

فارتجت المدينة بالصياح ، وبلغت الأصوات مسامع عالى ، فقال :

ــ ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟

وكان الرجل قد وصل الى عالى ، فقال للشيخ الجالس على كرسيه :

ــ هزمنا هزيمة منكرة .

ــ وماذا فعل الناس ؟

ــ قتل منهم الآلاف .

ــ وابنائى ؟

ــ قتلوا جميعا .

ــ والتابوت ؟

ــ اخذه الأعداء .

وبان فى وجه الشيخ القهر الشديد ، وعلاه عبوس ، ومال الى الوراء فى ضيق ، فسقط عن كرسيه ، فوقع على رأسه ودقت عنقه امام خيمة الرب ، فى نفس المكان الذى كان يضطجع فيه ابناؤه مع فتيات اسرائيل الجميلات ، الوافدات للعبادة والاستغفار !!

— ٣ —

ومرت السنون ، وشمويل يدعو اليهود الى الله ، وفى ذات يوم جمعهم ، وقال لهم :

— توبوا الى الله ، واخلصوا له ، وانزعوا من عبادة البعليم والعشتاروث والآلهة الغريبة التى لا تنفعكم ولا تضركم ، واعبدوه وحده يخلصكم من أعدائكم ، وينصركم عليهم .

فقالوا له :

— تبنا الى الله وانبنا .

فأمرهم أن يصوموا ذلك اليوم ، تطهيرا لنفوسهم ، وتقربا الى الله ، ليؤيدهم بنصر من عنده ، ودارت المعارك بين بنى اسرائيل واعدائهم ، فانتصر اليهود ، لأن شمويل طهرهم من رجسهم ، وبث فيهم روح التضحية والاقدام . وأصبح شمويل شيخا ، فاجتمع اكابر بنى اسرائيل يديرون قداح الراى بينهم ، ثم ذهبوا الى نبيهم وقالوا له :

— يا شمويل ، أصبحت شيخا وقد جئناك لتدعو ربك ، ليجعل علينا ملكا يحكمنا ويجمعنا حوله ، ككل شعوب الارض ، ويقودنا لنقاتل فى سبيل الله .

فقال لهم شمويل :

— اننى ان ذهبت أترككم لله وهو خير راع لكم .

فقالوا له :

— يا شمويل اننا نعلم ذلك ، ولكننا نريد ملكا يلم شملنا ، ونلتف حوله .

فقال لهم شمويل ليردهم عن رأيهم :

ـــ اتعملون ماذا يفعل الملك فيكم ؟ سيأخذ ابناءكم ليركضوا أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه آلاف الخدم والعبيد ليحرثوا أرضه ، ويحصدوا حصاده ، ويأخذ بناتكم سرارى وحظايا ، ويستولى على اجود اراضيكم ليمنحها عبيده ، ويسخر عبيدكم وجواريكم ليعملوا فى أرضه ، وستصبحون جميعا عبيدا له ، وستضرعون الى الله أن يخلصكم منه ، ويومها لن يسمع الله دعاءكم .

فقالوا له :

ـــ يا شمويل ، اننا نعلم كل ذلك ، اننا نقبله . ان كل ما نبغيه أن يكون علينا ملك ، يجمع كلمتنا ، ويقودنا لقتال أعدائنا الذين اذلونا .

فقال لهم شمويل :

ـــ هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟

فقالوا له :

ـــ وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا .

وراح شمويل يصلى لله ويدعوه أن يجيب رغبة قومه ، وفيما هو فى دعائه أوحى الله اليه أنه سيجعل طالوت عليهم ملكا ، فخرج شمويل الى قومه ، وقال لهم :

ـــ يا قوم ، أن الله استجاب لدعائنا ، وسيبعث لنا ملكا .

فقالوا له فى لهفة :

ـــ من هو ؟

فقال شمويل فى هدوء :

— طالوت .

فانبعث من الناس أصوات استنكار ، فقد كان طالوت رجلا فقيرا ، وقال بعضهم :

— كيف يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

قال شمويل :

— ان الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يعطى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم .

وقال قائل منهم :

— وما أدرانا أن الله اختار طالوت ليكون ملكا علينا ؟

فقال لهم نبيهم :

— ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، تحمله الملائكة ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

وانتظر بنو اسرائيل آية الله ، واذا بهم يجدون التابوت أمامهم ففرحوا وهتفوا بحياة طالوت ، الملك الجديد .

— ٤ —

جمع طالوت بنى اسرائيل حوله ، وراح يقودهم من نصر الى نصر ، وجاءه شمويل يوما وقال له :

— ان الله يأمرك أن تذهب الى العماليق وأن تحاربهم ، فاذا انتصرت عليهم فاذبح رجالهم ونساءهم وأطفالهم وأبقارهم وجمالهم وحميرهم ، ولا تدع لهم شيئا .

فجمع طالوت جموعه وانطلق لقتال العماليق ، فهزمهم ، وأسر اجاج ملكهم ، ودخل اليهود مدنهم ، فلما وجدوا الأبقار والجمال والخراف تحرك فيهم طمعهم ، وعز عليهم ان يقتلوا هذه الأنعام تنفيذا لأمر الله ، فراحوا يقتلون الاغنام الهزيلة ، ويسوقون أمامهم العجول الحنيذة ، والأبقار الجسيمة ، والجمال الكريمة ، والخراف السمينة .

وجاء شمويل ودخل على طالوت ، فقـــام طالوت اليـــه ، وقال له :

ـــ أنت رجل مبارك ، أمرتنى بما أوحى الله اليك ، فخرجت الى العمالقة وهزمتهم ، ونفذت ارادة الله .

فقال شمويل :

ـــ ولكنك لم تنفذ أوامر الله ، اننى أسمع رغاء الابل ، وثغاء الشاء .

ـــ لقد أخذ الشعب هذه الأغنام لتذبح تقربا لله .

ـــ أن تصدع لأوامر الله خير من ان تتقرب اليه بذبيحة .

ـــ اننى اتوب الى الله .

ـــ وأجاج ملكهم ، لماذا أسرته ولم تقتله .

ـــ وجدت أن فى اسره اذلالا له .

ـــ اقتله ، اقتله الآن .

ـــ افعل .

ـــ أصبحت ملك اسرائيل يوم كنت متواضعا فى نفسك ، فما الذى غرك لتعصى أوامر الله ؟

ـــ سأتضرع الى الله أن يغفر لى خطيئتى ، تعال ابتهل اليه معى ان يعفو عنى .

فقال شمويل :

— لا اذهب مع من عصى اوامر الرب .

واراد شمويل ان ينصرف ، فأمسك طالوت بذيل جبته فتمزق .

فقال شمويل :

— يمزق الله مملكة بنى اسرائيل عنك .

فقال طالوت متوسلا :

— لقد اخطأت ، والآن فأكرمنى أمام شيوخ شعبى ، وأمام اسرائيل ، وارجع معى فأسجد لله وأدعوه أن يغفر ذنبى .

وسجد شمويل وطالوت لله يلتمسان غفرانه .

— ٥ —

دخل طالوت قصره ، فأحس انقباضا ، ان كلمات شمويل لترن فى اذنيه موحشة مخيفة : « يمزق الله مملكة بنى اسرائيل عنك » ماذا لو استجاب الله دعاء نبيه ؟ انه كان رجلا فقيرا وان الله أكرمه حتى صار ملكا ، وانه قد ألف عيشة الملوك ، وانه ليحز فى نفسه أن تزول عنه أبهة الملك والسلطان .

وبقى طالوت قلقا حزينا ، فلما دخل عليه غلمانه أنكروه ، وقالوا له :

— روح عن نفسك يا مولانا .

فقال طالوت :

— ان الأفكار السود تعبث بى .

— ابعث الى رجل يحسن الضرب على العود ، يبدد من حولك هذه الكآبة .

فقال احد الغلمان :

— أعرف غلاما يرعى الغنم ، يحسن الضرب على العود ، اذا غنى اصغى الكون ، وخشعت القلوب ، ان صوته عذب لا يحاكيه صوت فى الوجود .

— على بهذا الغلام ؟

فخرج العبيد يبحثون عن داود حتى اذا عثروا عليه عادوا به الى الملك ، وراح طالوت ينظر اليه ، فارتاح الى منظره ، كان اشقر جميلا ، وكانت عيناه زرقاوين ، وكان فى وجهه صفاء يعكس صفاء نفسه ، وكان قصيرا ولكنه ما كان قميئا .

واخذ داود يضرب على العود ، وما انبعثت الأنغام حتى احس طالوت كأنما السحر يسرى فى الهواء ، وشعر بالضيق يجلو عن صدره ، وبالنشوة تمشى فى أوصاله ، وارتفع صوت داود العذب الحنون يمجد الله :

يا رب ! ما أعظم أسمك فى الأرض
ويا لروعة جلالك فوق السموات
الأطفال والرضع يسبحون بحمدك
وطيور السماء تقدس لك
والقمر والنجوم صنع يمينك
يا رب . ما أمجد اسمك فى الأرض

واذا بطالوت يشعر بروحه تهيم فى ملكوت السماء ، انه يحس كأنما خلق خلقا جديدا ، فالراحة تلفه ، والنشوة تسكب فيه ، والطمأنينة تغشاه .

امر طالوت بنى اسرائيل ان يستعدوا لقتال أعدائهم ، فتاهب اليهود للقتال ، وخرج فيمن خرج اخوة داود ، أما هو فبقى يرعى غنم ابيه ، وقبل أن ينطلق الجيش ، قال طالوت لجنوده :

— ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى ، الا من اغترف غرفة بيده .

وسار الجيش حتى اذا وصلوا الى النهر ، راح الرجال يشربون منه ، وعصوا أمر طالوت الا قليلا منهم ، فأمر طالوت من عصوه أن يقفلوا راجعين ، لأنه لا خير فى جنود لا يطيعون أوامر قائدهم .

وعبر طالوت والذين معه النهر ، واصبحوا امام جيش جالوت حاكم الفلسطينيين ، فلما رأوا جيش جالوت الجرار ، مشى الرعب فى أوصالهم ، وقالوا :

— لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

فقال المؤمنون الذين يظنون أنهم ملاقوا الله :

— كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين . وانطلق جيش طالوت حتى اصبح امام جيش جالوت ، فدعا المؤمنون ربهم :

— ربنا افرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

بدأت المناوشات بين الجيشين ، فكان الرجال يخــرجون

للرجال ، وبرز من بين صفوف الفلسطينيين ملكهم جالوت ، وكان طويلا جدا ، في وجهه صرامة ، يبعث منظره الرعب في القلوب ، ويزلزل الأرض تحت اقدام الأبطال الصناديد .

ووقف يتألق في الشمس في زهو ، وعلى رأسه خوذة من نحاس تتلألأ فتنبعث منها أشعة تشيع في صفوف بني اسرائيل رعبا شديدا ، وكان يخيل لبني اسرائيل أن درعه النحاسية حصن منيع ، وكان في يده رمح هائل يترجح على سنانه المنون ، وصاح في صوت يقصف كالرعد :

— يا طالوت لم يقتل قومي وقومك ، اخرج لقتالي او اخرج لي من شئت ، فان قتلتك كان الملك لي ، وان قتلتني كان الملك لك .

وساد في ميدان القتال سكون رهيب ، ولف الخوف معسكر اليهود ، فما كان أحد منهم يجرؤ على أن يفكر في التقدم لقتال ذلك الجبار الرهيب ، وصاح طالوت في جنوده :

— من يخرج لقتال جالوت ؟

فلم يخرج أحد ، فما كان أحد ليرمي نفسه في أحضان الموت عن طواعية . وتقدم جالوت صوب صفوف اليهود ، فتأخروا مرعوبين ، فضحك جالوت ، وجلجلت ضحكاته ، وانبعثت الهتافات من صفوف جنوده ، وتطايرت عبارات الزراية والاستخفاف .

ومرت الأيام وجالوت يبرز كل يوم بين الصفوف يدعو الرجال للنزال ، فلا يجرؤ أحد على أن يخرج له ، فحز ذلك في نفس طالوت ، وأراد أن يشجع الرجال على الخروج

لقتال ذلك الطاغية الذى يسخر منهم كل يوم ، فصاح فى جنوده :

ـــ من يقتل جالوت كرمته وزوجته ابنتى ، وجعلت بيت أبيه حرا فى اسرائيل .

فلم يغر ذلك الوعد احدا من بنى اسرائيل ، فقد كانوا على يقين من أن من يخرج لقتال جالوت سيزف الى الموت قبل أن يزف الى ابنة طالوت .

وانقضى اربعون يوما على الحرب وجالوت يخرج كل يوم بين الصفوف يتألق فى الشمس فى زهو ، وعلى رأسه خوذته المتلألئة التى تبعث الرعب فى قلوب بنى اسرائيل ، وفى يده رمحه الهائل الذى يترجح على سنانه المنون ، ويصيح بالرجال الصناديد أن يخرجوا لقتاله ، فلا يجرؤ احد على الخروج . كانت سخرية جالوت بهم مريرة ، تحز فى نفس ملكهم طالوت .

ترك داود غنمه ، وذهب ليرى اخوته المحاربين ، ويطمئن عليهم ، ويقدم لهم بعض الطعام ، وبلغ داود ساحة القتال فوجد الجيشين قد اصطفا للنزال ، وقد برز جالوت بين الصفوف ، وأخذ يصيح فى زراية واعتداد :

ـــ أما من احد يريد أن يقاتلنى ؟

انكمش اليهود ، ولم يتقدم منهم أحد ، فأحس داود دماءه تثور فى عروقه ، وتتدفق حارة الى رأسه ، فما بال هؤلاء الرجال يحجمون عن قتال ذلك الرجل ، فانطلق داود من بين الصفوف كعاصفة مزمجرة ، وصاح :

ـــ أنا أقاتلك .

فهرع أخوة داود اليه ، وصاحوا به :

ـــ امجنون انت ؟ انه جالوت .

ـــ ان من هو أقوى من جالوت يؤيدنى .

ـــ عد الى غنمك يا داود ، انك تتدم على الانتحار .

وتقدم طالوت منه وقال له :

ـــ انك غلام وهو رجل حرب منذ صباه .

ـــ دعنى يا مولاى أقتله ، ان الله معى .

فقال له طالوت :

ـــ اذهب والله يرعاك .

وألبس طالوت داود ثيسابه ، وجعسل خسوذة من نحاس على رأســه ، وألبســه درعا ، وقلده سـيفا ، وهسم داود بالسير ، ولكنه لم يقدر ، فنزعهـا داود عن نفســـه ، وقال لطالوت :

ـــ انى اجيد اســتعمال المقــلاع ، فما صــوبته الى شىء الا أصبته .

وتقدم داود فلما رآه جالوت غلاما صغيرا ، نظر اليه فى استخفاف وقال له :

ـــ يا فتى ارجع ، فانى لا أريد أن اقتلك .

فقال داود فى حزم :

ـــ لا ، بل انا أقتلك .

وساد المعسكرين هدوء ، واشرأبت الأعناق ، وشخصت الابصار ، وأخرج داود من جرابه حجرا ، ووضعه فى المقلاع ثم أداره وارسل الحجر ، فأصاب به عين جالوت فسقط ، فاسرع داود اليه ، وقعد على صدره وحز رأسه ، فانبعثت أصوات الهلع من صفوف الفلسطينيين ، وانبعثت أصوات التهليل من صفوف بنى أسرائيل .

قتل داود جالوت ، فزلزل ذلك قلوب الفلسطينيين ، فما دار بخلدهم أن غلاما يقدر على ملكهم الجبار العتيد ، وبعث ذلك فى صدور بنى اسرائيل الحماسة فشددوا على أعدائهم النكير ، وأعملوا فيهم القتل حتى فروا من أمامهم مهزومين .

— ٧ —

وعاد طالوت منتصرا ، فخرج بنو اسرائيل لاستقباله ، وراحت الاسرائيليات يرقصن ويغنين فرحات مستبشرات ، واخذن ينشدن ان الملك ضرب اعداءه ، وأن داود استحق أن يتزوج ربوات ابنة الملك ، فأحس طالوت بعض الكدر ، فما كان داود الا راعيا يرعى الغنم ، لا يليق أن يصاهر الملك ، ونسى طالوت انه كان سقاء قبل أن يختاره الله ملكا لبنى اسرائيل !

كان داود متواضعا فى نفسه ، فلم يلتمس أن ينفذ الملك وعده ، ويزوجه ابنته ، انه ما خرج لقتال جالوت طمعا فى ربوات ، ولكنه تقدم لقتله ارضاء لاله اسرائيل .

وعين طالوت داود قائدا لجيوشه ، فكان لا يخرج الى غزوة الا عاد منها منتصرا ، واشتهر داود وعلا ذكره ، أحبه الشعب حبا جما ، ورأى الملك أن يصاهره ، فبعث اليه من قول له :

— ان الملك يوافق على أن يعطيك ابنته ميرب لو طلبتها زوجة لك .

فقال داود فى صدق :

ــ ومن انا حتى أصاهر الملك ! ؟

وتزوجت ابنة الملك الكبرى من رجل اخر ، واستمر داود فى غزواته ، ودخوله وخروجه أمام الشعب ، فاصبح محط آمال الاسرائيليين ، وشغفت ميكال ابنة الملك به حبا ، فارسلت الى ابيها من يذكر له أن ميكال ابنته تهوى داود ، ولا تطيق العيش بعيدة عنه ، فبعث طالوت اليه الرسل يقولون له :

ــ ان الملك يحبك وتقدرك ، وانه يرى أن يزوجك ابنته ميكال اظهارا الاعجابه بك ، ومكافأة لك على الوفاء والاخلاص .

فقال داود :

ــ ومن انا حتى أصاهر الملك ؟ !

ــ انك قائده المظفر ، الذى يسير النصر فى ركابه ، انك طالع السعد فى مملكته .

ــ اننى رجل فقير ، وليس من الهين على رجل مثلى أن يصاهر الملوك .

ــ انك رجل حرب قدير ، وبمثلك توطد العرش .

واستمر الرسل فى اقناع داود بقبول الزواج من ميكال التى تحبه ، حتى اقتنع ، وتم الزواج ففرحت ابنة الملك العاشقة ، وزاد داود بتلك المصاهرة علوا ورفعة فى أعين بنى اسرائيل .

زاد داود علوا ورفعة فى عين بنى اسرائيل ، وزاد حب الشعب له ، فأحس طالوت عوامل الغيرة تتحرك فى نفسه ، واخذت الغيرة تزداد حتى فكر طالوت فى قتل داود .

كانت تلك الفكرة تراوده وتستولى عليه وتستبد به ، وفى ذات ليلة أفضى الى يوناثان ابنه وولى عهده ، أنه سيقتل داود ، ليبقى على الملك فى أسرته ، فداود أصبح خطرا على العرش ، ان قلوب الشعب تلتف حوله ، وأن الزمن حليفه ، فاذا ما ترك حيا فلن يحول بينه وبين الملك حائل .

كان يوناثان يحب داود حبا جما ، ويقدر مواهبه ، فهرع اليه وقال له :

— أبى يلتمس الليلة قتلك ، فاهرب من وجهه الى الخلاء ، واختبىء فاذا أسفر الصبح عن وجهه ، خرجت أنا وأبى الى قرب مخبئك وتحادثنا عنك فتسمع ما يدور بيننا من حديث .

وهرب داود من وجه طالوت ، فلما أصبح الصبح خرج طالوت وابنه واقبلا حتى وقفا بالقرب من مخبأ داود ، وقال يوناثان :

— ليت الملكَ لا يخطىء فى حق عبده داود ، لأن داود لم يخطىء فى حقك ، انه ليبــذل قصارى جهـــده ارضـــاء لكَ ، لقد شهر نفسه فى يدكَ سيفا على أعدائكَ ، وأنزل بهــم

الهزائم ، انك لا ترضى أن تريق دما بريئا . تذكــر أن الرب الذى اختارك ملكا على هذا الشعب يرقب أعمالك ، ويعرف ما تخفيه فى صدرك .

فأطرق طالوت قليلا وقد أحس ندما على ما فكر فيـه ، فقال :

ـــ اقسم أن لا أمد يدى الى داود بأذى ما حييت .

وعاد طالوت وابنه الى القصر يتسامران ، وخرج داود من مكمنه وانطلق الى الملك ، فقابله باشا مرحبا .

وخرج داود لقتال الفلسطينيين ، فضربهم وانتصر عليهم ، وعاد الى بنى اسرائيل مظفرا ، فاستقبلوه استقبالا فخما رائعا ، وبلغت مسامع طالوت هتافات الجماهير ، فتحركت الغيرة فى صدره ، وراحت تعذبه وتضنيه .

وجلس داود يوما الى الملك يشــجيه بصــوته الحنون ، وكان الملك مطرقا وفى يده رمح ، لم يكن يصغى الى الصــوت العجيب الذى ينفث الســحر ، بل كان يصغى الى شــيطانه الذى كان يوسوس له أن يقتل من ســلبه حب شعبه ، ورفع الرمح وطعن داود ، ولكنه أخطــأه ، فنهض داود وفــر من وجهه .

هرب داود الى بيته ، وذهب الى ميــكال ، يقص عليها خبره ، فقالت له ميكال :

ـــ اننى أعرف أبى ، اهرب بنفسك الليلة ، لأنه سيبعث فى اثرك من يقتلك .

وهم داود بالخروج ، فقالت له ميكال :

ـــ لا تخرج من الباب ، أن عبيد أبى يرصدونك ، ويرقبون خروجك ليقتلوك ، تعال .

وساعدته على الخروج من كوة فى الحائط ، فانطلق هاربا من الموت الذى ينتظره عند الباب .

ووضعت ميكال فى فراش داود تمثالا ، وغطته بغطائه ، لتخدع الرجال الواقفين بالباب يتجسسون . وارسلت الشمس اشعتها الأولى ، فسمعت ميكال طرقا على الباب فذهبت لتحدث عبيد ابيها ، فلما انفرج الباب قالت للرسل الذين أرسلهم الملك :

ـ ماذا تبغون ؟

ـ ان مولانا يطلب داود .

فقالت ميكال فى هدوء :

ـ أن زوجى مريض .

وعاد الرسل الى الملك ، فأمرهم أن يأتوا اليه بداود فى فراشه ، وقفل الرسل عائدين ، وما دخلوا حجرة داود حتى وجدوا التمثال فى استقبالهم .

واشتد غضب طالوت ، وصاح بابنته :

ـ لماذا أطلقت عدوى حتى فر من يدى .

فانبرت الزوجة المحبة تدافع عن زوجها ، ولكن ذلك الدفاع لم يذهب بغضب الملك ، فبعث رسله ينقبون عن داود .

وجاء اليه رسله يخبرونه بمكانه ، فخرج اليه فى جنوده ، وما أن وصل الى حيث كان حتى وجده والنبى شمويل يصليان لله فى خشوع ، ويشع من المكان نور الهى عجيب ، وتطوف به نفحات ربانية تغمر بالايمان القلوب ، فانقشع الحقد من صدره ، وهبت عليه نسائم من الرحمة ، وتذكر ما فعله الله له ، وأنه أكرمه وجعله ملكا على شعبه ، فخلع ثيابه ، وذهب يصلى لله ، يدعوه فى ذلة وانكسار .

قابل داود يوناثان وقال :

ـــ ماذا جنيت حتى يلتمس ابوك قتلى ؟

فقال له يوناثان :

ـــ سامحك الله ، ان أبى قد عفا عنك .

ـــ اننى احس الشر يحيط بى من كل مكان .

ـــ ان أبى لا يفعل شيئا الا اخبرنى به ، فلو كان ينوى قتلك حدثنى عن ذلك .

ـــ لقد علم ابوك حبك لى ، فأخفى عنك عزمه .

فاطرق يوناثان قليلا ثم قال :

ـــ وماذا ترى ؟

ـــ ان غدا أول الشهر ، وان على أن أشارك الملك فى مجلسه فى الوليمـــة التى يعدها كل شهر ، ولكننى أرى أن أتخلف من هذه الوليمة ، فاذا سأل ابوك عنى ، فقل له : ان داود استأذننى فى الذهاب الى بيت لحم ، ليقدم قربانا الى الرب ، فاذا قال الملك : « حسنا » ، كان ذلك دليل الرضـــا والسلام ، أما اذا غضب وثار كان ذلك آية على ما يضمر لى من شر .

واتفقا على أن يختبىء داود حتى يكشف يوناثان خبيئة نفس ابيه ، ويخبره بما يضمر له . قال داود لصديقه :

— أخشى اذا جئت الى ان يبعث الملك رجاله فى اثرك يتعقبونك ليهتدوا الى مكانك .

فقال يوناثان وهو يفكر :

— فماذا نفعل ؟

فقال داود وهو يضغط على يد صديقه فى ولاء : والله لا أدرى .

فقال يوناثان :

— اخرج مع غلام من غلمانى فاذا كان الملك راضيا عنك ، فسأرمى سهامى وآمر الغلام ان يلتقط السهام القريبة منه . اما اذا كان الملك حاقدا عليك ، فآمر غلامى أن يلتقط السهام التى تجاوزته .

وانطلق داود يختبىء ، وذهب يوناثان الى القصر ، ووافى ميعاد الوليمة ، فجلس الملك فى صدرها ، وجلس كل فى مكانه ، وبقى مقعد داود خاليا ، ومر اليوم الأول ، ولم يقل الملك شيئا ، وجاء اليوم الثانى ، وجلس كل فى مكانه ، وبقى مقعد داود خاليا ، فقال الملك :

— اين داود ؟ غاب اليوم ، وغاب الأمس .

فقال يوناثان :

— التمس داود منى أن أسمح له بالذهاب الى بيت لحم ، ليقدم الى الرب قربانا . وسألنى أن يذهب ليرى اخوته ، فأذنت له .

فغضب طالوت غضبا شديدا ، وصاح بابنه :

— يا أحمق ، الا ترى أنه ما دام داود يمشى على وجه الأرض ، فلن تتربع يوما على عرشك ؟ ! ابعث من يأتى به ، لأقتله .

ـــ كيف تقتله ولم يفعل ما يوجب القتل ؟ حرام ان تهدر دما بريئا .

ـــ انني اقتله من اجلك .

ـــ لا أرضى أن تسفك الدماء باسمي .

ـــ عزيز على أن أرى الملك يفلت من بين اصابعك ، وانا انظر لا افعل شيئا .

ـــ اين ذهبت حكمتك .. انسيت أن الله يعطي الملك من يشاء ؟

ـــ ان حكمتي تهيب بي أن اقتله ، اذا تربع على العرش ، فلن يتركك تمشي في الأرض يوما ، سيقتلك ويقتل أسرتك جميعا ، فما كان لملك جديد أن يترك أحدا دون ذبح من أسرة من سبقه ، انني سأقتله لأحييكم جميعا .

فقال يوناثان وهو يغادر المكان :

ـــ لن أسمح بذلك ما دام في عرق ينبض .

وانقضت الليلة ، وبزغت الشمس تريق ضياءها على الكون ، وخرج يوناثان وغلام صغير يحمل قوسه وسهامه ، وما ان بلغ مكان اختفاء داود حتى تناول القوس ، ووضع فيه السهام ، واطلقها بعيدا ، وصاح بغلامه :

ـــ التقط السهام التي تجاوزتك ، أسرع ، اركض ، لا تقف .

وفهمها داود ، فخرج على حذر ، وانطلق وهو يترقب ، فالملك حاقد عليه يريد اغتياله ، لقد أصبح طريد القانون ، فراح يحث الخطا هاربا بحياته .

اصبح داود طريد القانون ، انه عرضة للقبض عليه فى اية لحظة ، وتنفيذ القتل فيه ، وان من يبدى له صداقته يعرض نفسه للمهالك ، واستمر فى مراره حتى وصل الى نوب مدينة الكهان ، ودخل على اخيالك الكاهن ، فاضطرب الكاهن لما راى داود قد دخل عليه وحيدا ، فما اعتاد أن يراه الا فى جنده وابهته ، وأوجس خيفة ، فقال له فى ريب :

ـــ لماذا أنت وحدك ؟

فقال داود فى همس كانما يفضى الى الكاهن بسر :

ـــ أمرنى الملك امرا واوصانى الا يعلم به احد ، لذلك خرجت وحدى ، حتى لا يفطن احد الى خروجى .

وتلفت داود ثم قال :

ـــ ايمكنك أن تمدنى بطعام ؟

ـــ ليس عندى الا الخبز المقدس .

وقدم له من الخبز الموضوع على مذبح يهوذا ، فلما تناول الخبز قال :

ـــ ايمكنك ان تمدنى بسلاح ، لاننى خرجت على عجل دون سيف أو رمح ؟

فقال كاهن نوب :

ـــ ليس عندى الا سيف جالوت الذى قتلته ، فان رايت أن تأخذه فخذه .

فقال داود :

ـــ على به ، انه سيف بتار .

وخرج داود لينضم الى اهله ، وما درى ان احد خدم طالوت كان فى المعبد يسترق السمع ، ويمـــد عليه حركاته وسكناته .

وانضم الى داود اهله ورجاله والساخطون الثائرون على الحكم ، وراح الرجال يتقاطرون عليه حتى اشـــتد ساعده ، واحتمى بالجبال ، فلما بلغ طالوت خروج الرجال الى غريمه ، وقف فى رجاله وقال لهم :

ـــ ما لقلوبكم قد تغيرت على ، وما بالكم تخفون عنى ان ابنى قد تعاهد مع داود ، ما بال أفئدتكم قد تحجرت ، أيمنحكم داود جميعا حقولا وكروما ، وينصبكم رؤساء على الجند ؟ ! ماذا فعل لكم داود حتى أصبحت قلوبكم معه .

فتقدم الخادم الذى رآه فى المعبد ، وقال فى هدوء :

ـــ رأيت داود فى نوب يتحدث مع اخيالك ، وقد اعطاه الكاهن مئونة وسيفه جالوت .

فبعث الملك من يحضر له أخيالك وجميع أهل بيته ، فلما مثلوا أمامه ، قال الملك للكاهن فى غضب :

ـــ ما الذى جعلك تتآمر على ، وتتحالف مع عدوى ؟

ـــ حاشاى ان افعل ذلك يا مولاى .

ـــ منحت داود طعـــاما ، وأعطيتـــه ســـيفا ، ونفحتـــه ببركتك .

ـــ من من رعاياك اكثر اخلاصـــا لك من داود ! انه زوج ابنتك .

ـــ انه عدوى .

ـــ ما كنت أعرف يا مولاى شيئا من ذلك .

ولم يصغ طالوت اليه ، وقال فى غضب :

ـــ فلتمت انت وأهل بيتك .

وصاح طالوت فى خدمه :

ـــ اقتلوا هؤلاء الذين تآمروا على الملك مع داود .

وقف الخدم مشدوهين ، فما كانوا يظنون ان يأمر طالوت بقتل رهبان الرب ، وفطن طالوت الى ترددهم ، فصاح بهم :

ـــ اقتلوهم .

ولكن أحدا من الخدم لم يتقدم ، فصـــاح فى الخادم الذى افشى سر داود :

ـــ اقتلهم انت .

وتقدم الرجل يقتل اخيالك وأهل بيته ، ولم يشف ذلك الدم المسفوك غليل الملك ، فبعث جنوده الى نوب مدينة الرهبان ، فيضربوا آهلها بالسيف ، فســقط الرجال والنســاء والأطفال صرعى ، ولم ينج الا غلام انطلق يخبر داود بما حل بنوب : مدينة الرهبان .

— ١١ —

وترامى الى داود أن الفلسطينيين قد أغاروا على قعيلة ، الواقعــة على الحدود بين أراضى اسرائيــل والفلســطينيين ، فقال لرجاله أن يتأهبوا للخروج لقتال الفلسطينيين ، فقال له رجاله :

ـــ اننا ها هنا خائفون نترقب ، نخشى أن يهبط علينا طالوت

وجنوده ، فكيف تريد أن نذهب الى قتال الجبارين ؟

فقال داود لرجاله :

ـــ سنخرج للقتال ، وسننتصر على أعداء اسرائيل .

فقال الرجال فى اضطراب :

ـــ كيف نغادر الحصون لنذهب الى مدينة لها أبواب واسرار ؟

ـــ أوحى الى اننا منتصرون .

وخرج داود وضرب أعداءه ، وساق أمامه الغنائم والاسلاب ، وبلغ طالوت أن داود ورجاله الثائرين قد دخلوا قعيلة ، فأيقن انهم قد وقعوا فى يده ، فما أيسر أن يحاصرهم فى مدينة ذات أسوار وأبواب ، ولكنه ما أن بلغ المدينة حتى ألفى داود ورجاله قد خرجوا منها هاربين ..

واحتمى داود فى الغاب ، واذا برجل غريب قادم ، فامتدت الأعناق ، وشخصت الابصار ، واذا بصائح يصيح .

ـــ انه يوناثان .

فهرع داود للقاء صديقه الحميم ، وتعانق الصديقان ، وقال يوناثان :

ـــ لا تخف ، ان يد أبى لن تصل اليك ، وستصبح ملك اسرائيل ، وسأصبح خليفتك .

وتعاهد الصديقان أمام يهوذا أن يخلص كل منهما لأخيه ، ثم قفل يوناثان عائدا الى القصر ، وبقى داود هائما فى الغاب .

كان داود ورجاله يسكنون الكهوف ، وفى ذات يوم خرج طالوت فى ثلاثة آلاف رجل يطلب داود ، واستمر فى تنقيبه حتى بلغ الكهوف ، وأحس التعب يمشى فى أوصاله ، فدخل الى كهف ونام .

كان داود ورجاله فى ذلك الكهف ، فلما رأوا طالوت نائماً قالوا لداود :

ـــ هذا هو طالوت قد ساقه الله اليك ، قم فاقتله .

فقال داود فى اخلاص :

ـــ حاشى أن اقتل رجلا اختاره الله ملكا لبنى اسرائيل .

وهم الرجال بالانقضاض على ملكهم ، فقال لهم زاجرا :

ـــ حذار ان يمسه احدكم بسوء .

وسار داود على حذر حتى اقترب من طالوت الغارق فى سباته ، قطع طرف جبته ، ثم عاد الى مكانه ينتظر استيقاظ الملك .

قام طالوت من رقاده ،و انطلق صوب باب الكهف ، وما أن خرج منه ، حتى مس أذنيه صوت يناديه :

ـــ مولاى ! مولاى .

فقال طالوت فى عجب :

ـــ هذا صوت داود . أانت داود ؟

ـــ انا داود عبدك المخلص ، لماذا تلقى السمع يا مولاى الى من يوسوسون لك انني ابغى أن أمد لك يد الأذى ، ان الشر يا مولاى لا يصدر الا عن الأشرار ، اننى لا احمل لك الا الحب والاخلاص ، لو كنت أريد بك شرا ، فقد كنت اليوم تحت رحمتى ، فما كان ايسر أن أقتلك ، ولكننى ما كنت أمد يدى الى من أختاره الله ملكا علينا . انظر يا سيدى الى طرف جبتك ، قطعته لادلك على ولائى ، كانت روحك تتأرجح على طرف سيفى ، فوهبتها لك ، وأنت تقطع القفار ، وتتجشم المتاعب لتسلبنى روحى وما اسأت اليك . انى اتركك لله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

فانهمرت دموع طالوت وقال :

ـــ انت ابر منى يا داود ، ظفرت بى وعفوت ، قابلت الاساءة بالاحسان . يا للروح الخبيثة التى حلت بى ، كانت تهتف بى ان اقتل داود ، ولكن ماذا فعل داود ؟

اننى اسأت اليك يا ولدى ، وان الغضب أعمانى حتى قتلت رهبان الرب دون ذنب ارتكبوه . سأتبتل الى الله ، وادعوه عله ان يغفر لى ذنبى .

ووقع فى قلب طالوت التوبة ، وندم وأقبل على البكاء وكان كل ليلة يخرج يبكى وينادى :

ـــ انشد الله عبدا علم أن لى توبة الا أخبرنى بها .

فقال له قائل :

ـــ هل تدرى ما مثلك ، انما مثلك مثل ملك نـــزل قرية عشاء ، فصاح الديك فتطير منه ، فقال : لا تتركوا فى القرية ديكا الا ذبحتموه ، فلما اراد أن ينام ، قال : اذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج ، فقالوا له : وهل تركت ديكا يسمع صوته ، وانت هل تركت عالما فى الارض تسأله هل لك من توبة ؟

فازداد حزنه ، وانطلق يسح دموع الندم .

وخرجت جحافل الفلسطينيين لقتال اسرائيل ، وتأهب طالوت وجنوده للحرب ، ودارت المعركة رهيبة قاسية ، طالوت يقاتل فى حرارة ، ليكفر عن ذنبه ، انه كان متأهبا ليجود بدمه ، لعل الله يغفر له دماء الرهبان الزكية ، التى سالت كالأنهار فى نوب .

وانخلعت قلوب بنى اسرائيل امام هجوم الفلسطينيين الرهيب ، فولوا مدبرين ، وثبت طالوت وابناؤه للقتال ، وراح يوناثان يحارب فى قوة ويأس ، يذب عن أبيه .

سقط يوناثان صريعا ، فأحس طالوت كأن خناجر تمزق فؤاده ، وسقط ابناؤه حوله يتخبطون فى دمائهم ، فراح يئن كوحش جريح ، واصابة سهم فى عنقه ، فسال دمه غزيرا ، فالتفت الى حامل سيفه وقال له :

— استل سيفك واطعنى به ، فانه أكرم لى أن أموت بسيفك من أن أموت بسيوف هؤلاء الأوغاد .

فقال له الرجل وقد أتسعت عيناه رعبا :

— مولاى ، حاشاى أن أفعل ما يؤذيك .

فصاح به طالوت :

— اضرب .

فقال الرجل فى فزع :

— لا أستطيع .

فأخذ طالوت منه السيف ، وثبته فى الأرض ، وجعل

طرفه المدبب فى قلبه ، ثم القى بنفسه عليه ، فلفظ نفسه الأخير ، ورأى حامل السيف ما حل بمولاه ، فالقى نفسه على سيفه ، فسقط الى جواره يشاركه الممات .

وجاء الفلسطينيون يسلبون القتلى ، فوجدوا طالوت صريعا ، فحزوا رأسه ، ونزعوا سلاحه ، وراحوا يطوفون بالرأس فى الأسواق ، وهم يتصايحون فرحا ، وفى ذلك الوقت كان رجل من الاسرائيليين يفر مذعورا كأنما يقتفى اثره الشياطين .

أقبل الرجل وقد شق ثيابه ، يحثو التراب على راسه ، فهرع داود اليه وقال له :

— من أين انت ؟

— هربت من عسكر اسرائيل .

— كيف خلفتهم ؟

— فر الناس من المعركة مهزومين ، وقد سقط الرجال قتلى ، وصرع طالوت وابنه يوناثان .

وشعر داود بالحزن يعتصره ، وفاضت فى نفسه مشاعر الحب للملك الراحل ، وليوناثان الصديق ، فراح يندبهما فى صوت حزين :

مجدك يا اسرائيل صريع على شوامخك .
كيف سقط الجبابرة !!
لا تذكروا هذا النبأ فى جت .
ولا تذيعوه فى شوارع أشقلون .
لئلا تفرح الفلسطينيات .
لئلا تشمت بنات الاجلاف .
يا جبال جبلوع .

لا تدعى الطلل ولا المطر تتساقط عليك .
ولا المراعى تنبت على سفوحك .
لأن هناك ألقى مجن الجبابرة .
مجن طالوت دون أن يمسح بالدهن المقدس .
ان الحبيبين طالوت ويوناثان لم يفترقا فى حياتهما .
وها هو ذا الموت يجمع بينهما .
كانا أخف من النسور ، وأشد من الليوث .
يا بنات اسرائيل ابكين على طالوت بالدمع الهتون .
طالوت الذى دثركن فى الديباج .
وجعلكن ترفلن فى ثياب موشاة بالذهب .
كيف سقط الجبابرة فى وسط المعمعة .
يا يوناثان ، ي من قتلت مل .
أن حزنى عميق عليك يا يوناثان .
كنت لى حبيبا .
وكان حبك لى عجيبا :
يفوق حب النساء .
كيف سقط الجبابرة .
وتكسرت أدوات القتال ؟ !

— ١٣ —

السنون تمر ، وداود فى عاصمة ملكه حبرون يحكم عشيرته ، وابن طالوت على بنى اسرائيل ، وفى ذات يوم جاء الناعى ينعى اليه ابن طالوت ، فعلم داود ان موعد تنصيبه ملكا على اسرائيل كلها قد حان .

وجاء اكابر بنى اسرائيل اليه يدعونه ، ليكون ملكا على كل الارض ، ونودى به على اسرائيل ، ولما كانت حبرون لا نصلح لتكون عاصمة للمملكة كلها ، خرج داود وزوجاته ورجاله وجنوده وانطلقوا الى حصن اورشليم .

وأوحى الله اليه :

ــ يا داود ، انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ، بما نسوا يوم الحساب .

وقسم داود الدهر ثلاثة أيام ، يوما يقضى فيه بين الناس . ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوما يخلو فيه لنسائه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وفى ذات يوم خلا بنفسه يتعبد ، فراح يقرأ الصحف الأولى فوجد فيها فضل ابراهيم واسحاق ويعقوب . فرفع وجهه الى السماء وقال :

ــ يارب ارى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى ، فأعطنى مثل ما أعطيتهم ، وافعل بى مثل ما فعلت بهم :

ــ ان آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها ، ابتلى ابراهيم بذبح ابنه ، وابتلى اسحاق بذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بحزنه على ابنه يوسف ، وانك لم تبتل من ذلك بشىء .

فقال داود فى ابتهال :

ــ يا رب ابتلنى بمثل ما ابتليتهم به ، وأعطنى مثل ما أعطيتهم .

واستأنف داود حياته ، وخرج يوما الى سطح القصر . فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها ، فرأى امرأة من أجمل النســاء خلقــا ، فحانت منهــا التفاتة ، فأبصرته ، فألقته

شعرها فاستترت به ، فزاده ذلك فيها رغبة ، وشغل داود بها ، وسأل عنها ، فعلم انها زوجة أوريا الحثى ، وهو قائد من قواده ، وراحت صورة المرأة الفتانة تلح على مخيلته ، وهو يحاول أن يطردها ، وأخذ يشغل نفسه بالعبادة ، ولكن هيهات انه غارق فى بحسر لجى من التصورات التى تدور حول المرأة الجميلة التى انطبعت فى حسه .

وتوافدت الأفكار الى رأسه متدفقة متلاطمة ، وهمس فى نفسه هامس : لو قتل ذلك القائد فى معركة من المعارك ، لأصبحت المرأة له . واستولت عليه تلك الفكرة ، واستبدت به ، فبعث الى صاحب المسلحة التى يعمل بها أوريا ، وأمره أن يبعثه لقتال عدو شديد البأس .

خرج أويا للحرب ، ودار القتال ، واشتدت وطأته ، وحمى وطيسه ، وانجلت المعركة عن انتصار أوريا ، وعودته منصورا ، فبعث داود الى صاحب المسلحة أن ابعثه الى عدو آخر أشد بأسا ، فخرج أوريا للحرب وما هى الا أيام حتى عاد منتصرا ، فكتب داود الى صاحب المسلحة أن ابعثه ليفتح حصنا من حصون الأعداء ، فذهب أوريا الى الحصن المتين وعند أسواره سقط مقتولا .

بلغ داود نبأ مصرع أوريا ، فأخذ زوجته التى فتنته وتزوجها ، ليعيد الى نفسه الهدوء والاطمئنان !

—— ٤ ٪ ——

عادت الطمانينة الى داود بعد ان اكمل زوجاته مئة ، وعادت حياته الى ما كانت عليه ، ولكن ذلك الهدوء لم يدم طويلا ، ففى يوم عبادته دخل الى محرابه يمجد الله بصوته الذى تخشع له الأفئدة والطيور والوحوش فى الغاب وجاء رجلان يلتمسان مقابلته . فقال لهما الحراس :

— انه لا يستطيع أن يقابلكما اليوم ، لانه فى يوم عبادته .

فانطلق الرجلان الى السور وتسلقاه ، ودخلا على داود وهو غارق فى عبادته ، فما شعر الا وهما جالسان بين يديه ، فخاف منهما ، فقالا له :

— لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق .

قال لهما وقد افرخ روعه :

— قصا على قصتكما .

فقال أحدهما :

— ان هذا أخى ، له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فهو يريد أن يأخذ نعجتى فيكمل بها نعاجه مائة .

فقال داود للآخر :

— ما تقول ؟

— ان لى تسعا وتسعين نعجة ، ولأخى هذا نعجة واحدة ، فأنا أريد آخذها منه ، فأكمل بها نعاجى مائة .

— وهو كاره ؟..

ـــ وهو كاره .

ـــ اذا لا ندعك وذاك .

ـــ ما انت على ذلك بقادر .

ـــ فان ذهبت تروم ذلك ، ضربنا منك هذا وهذا .

واشـار الى طرف الانف والجبهة ، فقال الرجل :

ـــ يا داود انت احق ان يضرب منك هذا وهذا ، فان لك تسعا وتسعين امراة ، ولم يكن لأوريا الا امراة واحدة ، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل ، وتزوجت امرأته .

فنظر داود فلم ير شيئا ، فعرف أنهما ملكان أرسلا ليفهماه ما قد وقع فيه وما ابتلى به ، فخر ساجدا يبكى وينتحب ، ويقول فى حزن .

ـــ زل داود زلة هى ابعد مما بين المشرق والمغرب ، رب ان لم ترحم ضعف داود ، وتغفر له ذنبه ، جعلت ذنبه حديثا فى الخلائق من بعده .

ـ ١٥ ـ

اشتد حزن داود ، وشفه الاسى ، وراح ضـميره يعذبه ويضنيه ، وفرائصه ترتعد رهبة من خشية الله ، فكان يخـلو بنفسه فى محرابه ، ويخر ساجدا لله ، يدعوه ويبتهل اليه أن يرحم ضعفه ، وأخذ ينادى ربه وقد زلزلت نفسـه :

سبحان الملك الاعظم الذى يبتلى الخلائق بما يشاء

سبحان خالق النور ، سـبحان الحائل بين القلوب

الهى ! خليت بينى وبين نفسى ، فزلت بى قدمى .

الهى ! تبكى الثكلى على فلذة كبدها اذا فقدته ،
ويبكى داود على خطيئته .
سبحان خالق النور ، يغسل الثوب فيذهب درنه
أما خطيئتى فلاصقة بى ، لا تذهب عنى .
الهى ! الويل لداود اذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا
الخاطىء !
الهى ! بأى عين انظر اليك يوم القيامة وانما ينظر
الظالمون من طرف خفى .
الهى ! كانت نجوم السماء تؤنسنى ، وها هى ذى
خطيئتى تكتنفنى .
الهى ! انا الذى لا أطيق وعدك ، فكيف اطيق وعيدك !
الهى ! الويل لداود من الذنب العظيم الذى أصاب .
الهى ! رق القلب وجمدت العينان من خشية اللقاء .
سبحان خالق النور ! اللهم برحمتك أغفر لى ذنوبى
ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى ، فانك أرحم الراحمين .
الهى ! انى أعوذ بك ، وبنور وجهك الكريم من ذنوبى
التى أوبقتنى .
الهى ! فررت اليك من ذنوبى ، واعترفت بخطيئتى ،
فلا تجعلنى من القانطين ، ولا تخزنى يوم يبعثون .

وظل داود يبكى خطيئته ، ويدعو الله أن يغفر له ذنبه ، ويتوب عليه ، وكان لا يرفع رأسه الى السماء حياء ! وكان الناس يعودونه فيظنون انه مريض ، وما به الا الحياء والخوف .

ومرت الأيام والليالى وهو فى سجوده ، لا يرقأ له

دمع . وفى ليلة هادئة نام الناس ، وبقى داود وحده يناجى ربـسه .

ـــ يا رب ، قرح الجبين ، وجمدت العين ، داود لم يرجع اليه فى خطيئته شيء .

ونحب نحبة شقت سكون الليل ، فأوحى الله اليه :

ـــ يا داود ارفع راسك ، فقد غفر الله لك .

ـ ١٦ ـ

ورزق داود بسليمان من بتشيع ، زوجة أوريا ، ومرت السنوات وداود يغزو أعداءه ، وينزل بهم الهزائم القاصمة ، وكبر داود وشاخ ، كان يجلس للناس يحكم بينهم ، وفى ذات يوم جاء رجلان يختصمان ، قال احدهما :

ـــ ان غنم هذا الرجل دخلت حقلى ، اكلت ما فيـسه من الزرع .

وسأل داود صاحب الغنم :

ـــ هل فعلت غنمك هذا ؟

ـــ نعم .

قال داود :

ـــ يأخذ صاحب الحقل هذه الغنم ، مقابل زرعـه الذى فسد .

وكان سليمان حاضرا ، وكان غلاما فى الثانية عشرة من عمره ، فقال :

ـــ غير هذا يا نبى الله .

فالتفت داود الى ابنه وقال له :

ـــ ماذا ترى يا سليمان ؟

ـــ يأخذ صاحب الغنم الحقل ليصلحه ، ويأخذ صاحب الحقل الغنم ، لينتفع بلبنها ونتاجها ، حتى اذا عاد الحقل كما كان ، أخذ صاحب الحقل حقله ، وأخذ صاحب الغنم غنمه .

وتهللت أسارير داود لحكمة ابنه ، وقضى بما قاله ، ولما انفض مجلسه ، ودخل الى أهله ، واقبلت بتشيع اليه ، أخبرها أنه سينصب ابنها سليمان ملكا من بعده .

وفكر أدونيا بن داود فى أنه وارث العرش بعد أبيه ، فجهز عجلات وفرسانا ورجالا يجرون أمامه ، ورأى أن أباه قد شاخ ، ولم يعد يصلح للملك ، فعزم على أن ينادى بنفسه ملكا على اسرائيل ، فأعد وليمة فاخرة ، دعا اليها جميع اخوته ما عدا سليمان ودعا خدام الملك ، ليبايعوه بالملك فى ذلك الحفل .

ودخل حكيم من حكماء القصر على بتشسيع أم سليمان ، وقال لها :

ـــ اما بلغك ما فعله اليوم أدونيا ؟

فقالت فى لهفة :

ـــ ماذا فعل ؟

ـــ دعا أخوته الى وليمة ، لينصب نفسه ملكا على اسرائيل ، دون أن يعلم داود .

ـــ فماذا افعل الآن .

ـــ ادخلى الى داود ، وقولى له : اما وعدتنى أن يكون سليمان ملكا من بعدك ؟ فما الذى جعل ادونيا يطلب الملك لنفسه ؟ وفيما انت تحادثين الملك ادخل انا لاشد ازرك .

ودخلت بتشبيع على داود ، وقالت له :

ـــ وعدتنى ان يخلفك ابنى سليمان على عرشك ، ولكن ها هو ذا ادونيا يذبح الذبائح ، ويمد الموائد ويدعو جميع اخوته ليبايعوه بالملك دون علمك ، فماذا أنت فاعل ، ان بنى اسرائيل يتطلعون اليك .

ودخل حكيم القصر وقال :

ـــ أأنت أمرت ان يكون ادونيا ملكا من بعدك ؟

ـــ ادع لى الكاهن ، وادع لى رجالى .

ودخل الكاهن ورجال داود المخلصون ، فقال لهم داود :

ـــ اركبوا سليمان على بغلتى ، وانفخوا فى الابواق واهتفوا :

يحيا الملك سليمان .لقد نصبته ملكا على يهوذا واسرائيل .

وركب سليمان بغلة داود ، ونفخ فى الابواق ، فجاء الناس من كل فج عميق يهتفون بحياة الملك الجديد .

وصكت الهتافات آذان من دعاهم ادونيا الى الوليمة التى جهزها لينادى بنفسه ملكا على اسرائيل ، فارتعدت فرائصهم ، وانتشر الخوف فى أجوافهم ، فتفرقوا ذعرا ، ودبت الرهبة فى قلب ادونيا ، وخشى أن يفتك سليمان به ، ففر الى المعبد ولاذ به ، وقال : لن ابرح حتى يأتينى الأمان من أخى .

وأمنه سليمان ، فوفد عليه يعرض ولاءه .

وصعد سليمان الى عرش ابيه ، وتربع فى دست الملك ، فخر داود ساجدا فى فراشه وقال :

ــ لك الحمد يارب على ما أوليتنى من نعم ، الهى اغفر لى عجزى الأن بيانى قد قصر عن أن يفصح عما يجيش به صدرى . لك الحمد يا رب ، اذ وهبت لى اليوم من يجلس على عرشى ، وعيناى تبصران .

سُـــليمان وَ بلقـيس

— ١ —

الناس يتنفسون فى حذر ، ويتلفتون فى ذعر ، ويتهامسون فى خوف ، هجرت الطمأنينة سبأ بعد أن سادها الطغيان ، ونزل بها الرعب والفزع . ان زلة لسان ، أو اشارة امتعاض ، أو غمغمة استياء . كافية لاطاحة رءوس ، فالذى استلب الملك من ملكهم طاغية قد قلبه من الصـــخر . كان قاسيا لا يعرف الرحمة ، فأذاق الشعب صنوف العذاب ، وسقاه الذل ، وجرعه الهوان ، انه يلغ فى الدماء ولوغا ، وتستريح نفسه لأنات الألم ، وتأوهات الشقاء .

خيم على سبأ سحائب داكنة من الذل والخنوع ، وأحست بلقيس ما يقاسى الناس من كرب بعد موت أبيها ، فتألمت ، وزاد أساها على مر الأيام ، فانقلبت حقدا على الطاغية الغشوم . فما كان الشعب الوديع يستحق كل ذلك الاضطهاد .

أطرقت مهمومة تفكر فيما تعمله لذلك الشعب الذى رماه سوء حظه بحاكم مستبد ظالم لا يطاق ، فالتمعت فى رأسهـــا فكرة ، فبيتت العزم على انفاذها ، لعلها تريح الناس من ذلك الطاغية الجائر ، وتعيد الى القلوب الطمأنينة ، والى سبأ العظيمة الأمن والاستقرار .

تزينت وأرخت شعرها السبط الناعم الأسـود ، فتهـدل رائعا ، وتحلت بأفخر اللآلىء وأكرم الأحجار ، وابرزت الفتنة ، فكانت آية من آيات الحسن والجمال ، وانطـلقت الى قصر الطاغية تسبى العقول ، وتلعب بالأفئدة ، وتأخذ بالألباب .

ودخلت على الملك فلان القلب القاسى ، فخفق خفقـات ، والتمعت العينان ببريق غريب ، ورنا اليها فى حنان ، وانفرجت شفتاه من ابتسامة فضحت سر الفؤاد . ودنت منه ، فأجلسها الى جواره ، وأقبل عليها يحدثهـا فى اشتياق ، فحدثته فى لين ، ونظرت اليه فى دلال ، فهفت نفسه اليها ، وما قامت عنه حتى كان أسير العينين المتكسرتين فى اغراء ، والروح الهفهافة ، والقد الحلو المياس .

وترادفت زياراتها للملك ، فهام بها حبا ، كان اذا خـلا بنفسه يشاغله طيفها ، فتلوح له فى جاذبيتها وفتنتها ، فيخفق قلبه ، ويطرق ليستعيد حديثها ، فيحس سعادة . كان حديثها يدغدغ حواسه ، وطلعتها تزلزل كيـانه ، ونظرة منهـا تدثره بالنشوة ، فعزم على أن يتزوجها ، لتشاركه فى ملكه ، وتملأ قصره حبورا .

وأوفد اليها رسله ، فاستجابت لطلبه ، وأقيمت فى سبأ الأفراح ، وتأهب القصر لاستقبال بلقيس ، الأميرة الجميلة ، ابنة الملك الراحل المحبوب .

ووفدت بلقيس فى ثياب العرس ، فكانت أروع من الزهر ، وأندى من الفجر ، وأحلى من الربيع ، فهرع اليها الملك وفى صدره لهفة ، وفى عينيه حب ، وانطلقا الى صدر المكان لتجرى المراسيم .

وانقضت الحفلات ، فنهض الزوجان الى غرفتهما وانصرف المدعوون ، وساد القصر هدوء . ورنا الملك الى بلقيس الجميلة ، فتحركت مشاعره ، وهم بالدنو منها ، فقدمت اليه كاس خمر فتجرعها ، فانتشت روحه ، واقترب منها فقدمت له كاسا أخرى فعبها ، وراحت تقدم له الكئوس حتى سكر ، فزحف اليها وهو مخمور ، وفتح ذراعيه ليضمها اليه ، فاستلت من صدرها خنجرا وغيبته فى صدره ، فارتمى فى الفراش يخبط فى دمه ، وقد طوقه الموت بذراعيه ، فلفظ أنفاسه التى كان يرجو أن تتردد حارة على وجنات عروسه الحسناء !

وسارت بلقيس فى ردهات القصر ثابتة الخطو ، حتى اذا بلغت العرش الفت اعوانها يرصدون قدومها فى قلق ، فألقت اليهم برأس الطاغية ، واتجهت الى سرير الملك ، وجلست شامخة الراس ، فانطلق أعوانها خفافا ليزفوا الى الشعب النبأ العظيم ، نبأ تخليص سبأ من سلطان الجور ، واعتلاء بلقيس عرش البلاد .

— ٢ —

خرج جيش جرار يضرب فى القفار ، حتى اذا نال منه التعب ، رأى أرضا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها ، أحب النزول بها ، فحط الرحال ، والتمس الناس الماء فلم يجدوه ، فتلفت سليمان يبحث عن الهدهد ، وكان دليله على الماء ، فلم يجده ، فقال فى دهش :

— مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟
وطلب عريف الطير ، فأقبل النسر ، فقال له سليمان :
— أين الهدهد ؟
— أصلح الله الملك ، لا أدرى أين هو ؟
فغضب سليمان وقال :
— لأعذبنه عذابا شـــديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين .
ودعا بالعقاب ، وقال لها :
— على بالهدهد الساعة .
فرفعت العقاب نفسها فى السماء حتى التصقت بالهواء ، ونظرت يمينا وشمالا فاذا بالهدهد مقبل من نحو اليمين ، فانقضت العقاب نحوه وقالت له :
— ويلك ! ثكلتك امك ! ان نبى الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك .
فما ارتعـــدت فرائص الهـــدهد ، وطار مطمئنـــا ، فلما انتهى الى المعســـكر تلقاه النسر والطير كله ، وقالوا له فى اشفاق :
— أين غبت فى يومك هذا ؟ فقد توعدك نبى الله سليمان .
فظل فى رفقة العقاب منطلقا هادىء النفس ، مستريح البال ، حتى أتيا سليمان ، وكان قاعدا على كرسيه والى جواره وزيره آصف بن برخيا ، فقالت العقاب :
— قد أتيتك به يا نبى الله .
فالتفت سليمان الى الهدهد ، وفى عينيه غضب ، فرفع الهدهد رأسه ، وأرخى ذنبه ، واخذ يجر جناحيه على الأرض تواضعا ، فمد سليمان يده الى رأسه فجذبه منه وقال :

ـــ أين كنت ؟ لأعذبنك عذابا شديداً !

فقال الهدهد فى استعطاف :

ـــ مهلا يا نبى الله .

ـــ ما الذى أبطأ بك عنى ! ؟

ـــ احطت بما لم تحط به .

فالتفت سليمان الى آصف ، وقال فى دهش :

ـــ ما هذه الدعوى العريضة ؟

فقال الهدهد فى توكيد :

ـــ جئتك من سبأ بنبأ يقين .

ـــ ما هو ؟

ـــ انى وجدت امراة تملكهم ، واوتيت من كل شىء ، ولهـا عرش عظيم .

ـــ حقـا ؟

ـــ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله .

ـــ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

وذهب الهدهد ليدل الناس على الماء ، وكتب سليمان كتابا لبلقيس ، ثم طلب الهدهد ، والبسه التاج على رأسه ، ووضع الكتاب فى منقاره وقال له :

ـــ اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون .

فطار الهدهد والطيور حوله ، ثم انطلق رسول سليمان وحده الى سبأ حاملا الكتاب الكريم .

— ٣ —

اغلقت بلقيس عليها باب مخدعها ، ومضت الى فراشها ، واستلقت وقد ثبتت عينيها فى سقف الغرفة ، كانت تفكر فى امور ملكها ، وفيما هى فى سبحات خيالها اقبل الهدهد ، ودخل الى مخدعها من كوة كانت تتسلل منها الشمس ، فألقى الكتاب على نحرها . فانتبهت ، وأخذت الكتاب فى عجب ، فملأ عبير المسك خياشيمها ، وقلبته فى يدها ، فرأت الخاتم فبهرها ، ولمحت الهدهد فى انسحابه فغمغمت :

— ان ملكا تكون رسله الطير لملك عظيم !

وفضت الكتاب وقرأته ، فأطرقت مساهمة ، ورأت أن تجمع خواصها وأهل مشورتها ، لتعرض عليهم أمر هذا الكتاب الغريب ، فبعثت فى طلبهم ، حتى اذا اكتمل عقدهم خرجت اليهم وقالت :

— يأيها الملأ ، انى القى الى كتاب كريم ، انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلو على واتونى مسلمين .

وصمتت قليلا ، ونقلت عينيها فى وجوه الموجودين ، فلمحت الاهتمام العظيم . فقالت :

— يأيها الملأ ، افتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .

ـــ نحن اولو قوة واولو بأس شديد ، والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين .

فاطرقت بلقيس تفكر ، وتمعن فى التفكير ، فرأت أن فى الحرب دمارا وخسرانا مبينا فقالت :

ـــ ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها ، وجعلوا اعـزة اهلها اذلة ، وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهـدية فناظره بما يرجع المرسلون .

ودعت بلقيس المنذر بن عمرو ، وكان رجـلا من اشراف قومها ، وقالت له :

ـــ سأبعثك الى سليمان بهذه الهدايا .

وقدمت له لبنات من ذهب ، ولبنات من فضة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت ، وأوعية ملئت بالمسك والعنبر ، وحقة مغلقة ، وقالت للرسول :

ـــ سله أن يخبرك بما فى الحقـة قبل أن يفتحها ، فاذا اخبرك سله أن يثقب الدرة ثقبا مستويا ، وأن يدخل خيطا فى الخرزة .

ـــ افعل .

ـــ انظر الى الرجل اذا دخلت عليه ، فان نظر اليـك نظرة غضب ، فاعلم انه ملك ، فلا يهولنك منظره ، واذا رأيته رجلا بشا لطيفا ، فاعلم انه نبى مرسل ، ورد على الجواب كما تسمعه منه .

وخـرج رسول بلقيس الى سـليمان يحمل الهـدايا فى ركب فاخر عظيم ، وطار الهدهد رسول سليمان يحمل أنبـاء ما جرى فى قصر بلقيس الفاتنـة ، التى كانت انضر من ورد الربيع .

— ٤ —

امر سليمان الجن أن يعملوا لبنات من ذهب وفضة ، ويفرشوها على طريق وفد بلقيس ، وامرهم أن يجعلوا بين اللبنات موضعا خاليا على قدر اللبنات التى يحملها رسول الملكة الساحرة ، فراح الجن يعملون ، والجنود يهيئون مكان الاستقبال ، ومطابخ سليمان تطهو لذلك الجيش الجرار الطعام فتذبح آلاف الأغنام والعجول ، وتجلب مقادير هائلة من الفواكه ، حتى اذا وافى ميعاد الغداء ، مدت الموائد الى مسافات بعيدة ، واقبل الجنود يلتهمون الطعام .

وقعد سليمان على كرسيه والى جواره وزيره ، وأحاط به خلق كثير ، وأمر الجن ان يأتوه بأحسن الدواب ، فيجعلوها عن يمين الديوان وعن شماله ، واقبل رسول بلقيس ، ومن على تلك اللبنات الذهب والفضة ، ورأى ملك سليمان ، فتقاصرت اليه نفسه ، ورأى المحل الخالى بين اللبنات فخاف أن يتهم فوضع ما معه من لبنات فى ذلك المحل ، وما زال سائرا على استحياء ، حتى وقف بين يدى سليمان مضطربا ، ولكن بشاشة الرجل وتطلق محياه ، أعادت اليه هدوءه واطمئنانه .

وجلس الرسول يقلب ناظريه فيما حوله من عجائب وهو مأخوذ ، ووقف غلمان حسان على رأس سليمان بأطباق من ذهب ، وهى مملوءة من المسك السحيق ، وفيها صحائف من الياقوت الأحمر ، وفيها شيء من ماء الورد ، وفوقها طيور صغار ترفرف بأجنحتها ، وتنزل فى ماء الورد ، وتتمرغ فى ذلك المسك ، وتطير وتنتفض على الحشد الهائل ، فتعبق المكان بشذا لطيف . وانتهى سليمان من قراءة كتاب بلقيس ، فقال للرسول :

ــ أين الحقة التى معك ؟

ــ ها هى ذى .

فقلبها بين يده وقال :

ــ فيها درة مثمنة من غير ثقب ، وفيها خرزة من جزع وهى معوجة الثقب .

ــ صدقت . فاثقب الدرة ، وأدخل الخيط فى الخرزة .

فتناول سليمان الدرة وقال :

ــ من لى بثقبها ؟

فتقدمت أرضة ، فأخذت شعرة فى فيها ، ومرت فى الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر ، ورسول بلقيس ينظر فى ذهول ، وتناول سليمان الخرزة وقال :

ــ من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط ؟

فقالت دودة بيضاء :

ــ أنا لها يا نبى الله .

فأخذت الدودة خيطا فى فمها ، ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر . وقدم الرسول ما بقى معه من هدايا ،

فلم يقبلها سليمان : فما كان ليقبل منهم الا أن يهجروا عبادة الشمس الى عبادة الله ، فقال :

— اتمدونني بمال ؟ ! فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل انتم بهديتكم تفرحون .

— مولاى !

— ارجع اليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

وعاد الرسول الى بلقيس وقد ملئ عجبا ، وجعل يقص عليها ما رأى فى ملك سليمان العريض . فغمغمت :

— والله ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة .

— ٥ —

تأهبت بلقيس للانطلاق ، وخشيت على عرشها العظيم ، فأغلقت دونه الأبواب ، ووكلت به حراسا شدادا ، ولما تم كل شىء اذن بالرحيل ، فشخصت الملكة الجميلة الى سليمان فى ركب هائل ، وتقضت ليالى وأيام ، وفى ذات يوم خرج سليمان وجلس على سرير ملكه ، فرأى هرجا قريبا منه ، فقال :

— ما هذا ؟

— بلقيس يا رسول الله .

— وقد نزلت منا بهذا المكان ؟

— نعم .

فأطرق سليمان يفكر ، ان الهدهد وصـــف له عرشـــها فأسهب في الوصف ، فلو انه احضره امامها الساعة لكان في ذلك آية عظيمة ، ودليل على قدرة الله الفائقة ، فرفع رأســه وقال :

ـــ يايهـــا الملأ ، أيكم يأتيني بعرشـــها قبـــل أن يأتوني مسلمين ؟

قال عفريت من الجن :

ـــ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، واني عليه لقوي أمين .

وقال آصف :

ـــ أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك .

ـــ حقـــا ؟

ـــ انظر يا نبي الله الى جهة اليمين .

فنظر ، فما رجع نظره حتى رآه مستقرا عنـــده . كان مقدمه من ذهب مطعم باليواقيت الحمـــر ، والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة ، مكلل بألوان الجوهر ، وله أربع قوائم ، قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من ياقسوت أخضر ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من در أصفر ، وكانت صحائف السرير من ذهب خالص ، كان عرشا رائعا ، فشعر بشكر ، ونكس رأسه في تواضع وقال :

ـــ هذا من فضل ربي ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربي غني كريم .

ـــ نكروا لها عرشـــها ننظر أتهتـــدي أم تـــكون من الذين لا يهتدون .

فأخذوا يزيدون فيه وينقصون منه ، محاولين أن يخفوا بعض معالمه ، وأمرهم ببناء صرح ، فبنوه من زجاج مستور .

وأقبلت بلقيس رائعة الحسن ، شديدة الأسر ، تهفو اليها القلوب ، وما ان رأى جمالها حتى مال اليها ، واستقبلها باشا وكانت فى ذهول !! رأت فى ملكه عجبا لم تر مثله ، يأخذ بالالباب ، ويحير العقول . وقادها الى حيث كان عرشها ، وقال :

ـ اهكذا عرشك ؟

فقلبت نظرها فيه فى دهش ، وقالت :

ـ كأنه هو .

وقادها الى الصرح ، وقال لها :

ـ ادخلى .

نظرت الى صقال الصرح فرأت الأشياء معكوسة فيه فحسبته لجة ، فكشفت عن ساقيها الرائعتين البديعتين ، فغض سليمان من بصره ، وقال :

ـ انه صرح ممرد من قوارير .

وعاشت بلقيس عند سليمان اياما تقضت كحلم جميل ، رأت فيها عجائب واسرارا ، واشياء تحير العقول ، فأيقنت أن سليمان نبى كريم ، فآمنت به ، ورفعت رأسها الى السماء وقالت :

ـ رب ، انى ظلمت نفسى وأسلمت لله رب العالمين .

استر

قصة استر الواردة فى التوراة كتبها مردخاى نفسه ، ولما كان احد ابطال القصة فقد كتبها من الزاوية المشرقة ، وقد عالجتها علاجا يختلف عن التوراة » .

— ١ —

قصر هائل عظيم ، يوحى بالفخامة والروعة والغنى ، انه قصر الملك احشويروش الذى انتشر سلطانه على الهند وفارس والبلاد الممتدة الى كوش ، انه قصر اغلق أبوابه على روائع وبدائع ، انه كنز احتوى فى بطنه كنوز .

والتسف بالقصر حراس شداد ، حراس يغدون يروحون ، حراس واقفون لا يتحركون . ووقف مردخاى ام باب القصر الهائل ، وقد ارتدى ثيابا مزركشة ، وتصرم قت وهو منتصب كتمثال ، لا تختلج فيه خالجة ، وان نت الذكريات تتتابع فى راسه ، فتوحى اليه التأمل والتفكير .

راحت ذكريات الأيام الخوالى التى امضاها فى اورشليم

تفد الى ذهنه ، انه يرى نفسه فى المعبد بين قومه يعبد اله اسرائيل ، فيشيع فى صدره حنان ، ولكن سرعان ما ينمحى ذلك الاحساس ، لينتشر احساس آخر يضيق صـــدره ، ويحرك اشجانه ، فقد قفزت الى رأسه مشاهد اجتياح جيوش بختنصر لبلاده ، انها لتتدفق تدفق السيل العارم ، مخلفة وراءها الخرابه والدمار ، ورأى بعين خياله دماء اليهود تجرى فى الطرقات ، وقد تناثرت أجساد القتلى أشلاء ، ورأى نفسه يسقط فى أيدى الأعداء ، ويساق مع الأسرى زمرا ، حتى اذا بلغ الساحة التى يكنيا ملك اليهود قد جىء به أسيرا ، ورأى نفسه وبنى اسرائيل وهم ينطلقون كقطيع من الانعام ، منكسى الرءوس ، يحدوهم الذل ، ويعلوهم العار حتى خرجوا من فلسطين ، ليشتتوا فى الأرض فزفر زفرة خرجت من قلب حزين .

وسمع وقع أقدام ، فانتبه الى ما حوله ، فرأى أميرا من الأمراء قادما ، فحياه ، وما غاب الأمير فى القصر حتى عاد مردخاى الى ما كان فيه .

رأى نفسه وهو يباع بأسواق الرقيق بفارس الى رجل فقير ، لم يكن صاحب ضياع أو قصور ، بل كان صـــاحب عمل ، فاشتراه ليعاونه فى عمله ، ورأى نفسه وهو يعمل لذلك الرجل ، حتى كســـب ثقته ، ثم كاتبـــه على أن يهب له حريته لقاء مبلغ كبير . ولما كان مردخاى يهوديا ، كان قادرا على كسب الأموال ، فراح يعمل حتى ادخر ما يفك به رقه ، ويعيد اليه حريته .

واســـتمر مردخاى يفـــكر ويقـــلب الفـــكر ، حتى انتهت نوبته ، فـــدخل غرفة من غرف القصر الكثـــيرة التى خصصت لمن يعملون فيه .

— ٣ —

دخل مردخاى غرفته ، فألفى استر تتطلع الى صورتها فى المرآة ، وقد لاح فى وجهها الرضا ، كانت رائعة الحسن ، شديدة الأسر ، عيناها تلمعان ببريق يخطف القلوب ، شعرها الأسود الجميل المسترسل خلفها ، يزيدها روعة وحسنا . كانت فى السابعة عشرة ، يتدفق فيها الدم الفوار ، ويزينها تاج الشباب .

رماها بنظرة خاطفة ثم قال لها :

— تفتحت يا استر ، تفتح الأزهار فى الربيع ، ما اجمل حسنك !

فقالت استر فى دلال :

— أأنا جميلة حقا ؟

فقال مردخاى وقد شرد بصره :

— ما خلق الله هذا الجمال عبثا ، لابد يا استر ان يبذل لمصلحة بنى اسرائيل .

فقالت له استر :

— ماذا نستطيع أن نفعل ؟

— الجمال يا استر يفعل بالرجال الأعاجيب ، انه يلين اقسى القلوب ، واننى لأرجو أن استطيع بهذا الجمال الساحر أن اصون مصالح شعبنا ، اننا يا استر شعب مبغض ، يكرهه كل الشعوب ، لأن الله فضلنا عليهم ، جئنا الى هنا ونحن اسرى

وعبيد ، ولكن بجدنا اغتنينا وأصبحنا أصحاب الثروات فى هذه البلاد ، ان فارس والهند وكل هذه البلدان اصبحت فى قبضة يدنا .

فقالت استر وهى تميل برأسها الى الوراء ، وتنظر الى صقال المرآة .

ـــ هذا جميل .

فقال مردخاى :

ـــ هذا جميل ما دامت الغشاوة على أعين النـــاس ، أما اذا انقشعت تلك الغشاوة ، ورأوا اننا نستولى على منابع الثروات ثاروا علينا ، ويا ويلتنا اذا ثار الناس علينا ! ستراق دماؤنا ، وتترك أجسامنا للكلاب . كنت يا استر يوم غزا بختنصر بلادنا صغيرة ، ولو كنت عاينت ذلك اليوم الرهيب ، لما غادرت عينيك مشاهد ذلك اليوم المشئوم .

فقالت له استر :

ـــ اتظن يا عمى أن يعود علينا يوم شديد كذلك اليوم ؟

ـــ هذا رهن بأن يفطن رجل واحد الى ما أصبحنا فيه ، ثم يقوم بتأليب الناس علينا ، ان الشعوب تبغضنا يا استر ، تبغضنا من أعماق قلوبهم ، كأنما بيننا وبينهم ثارات .

فقالت استر وهى تنظر اليه بعينيها النجلاوين الساحرتين :

ـــ مصائرنا هنا معلقة بخيط واه .

فقال مردخاى مؤمنا :

ـــ وستظل معلقة بذلك الخيط الضعيف ، الا اذا استولينا على هذا القصر .

فقالت فى دهش :

ـــ نستولى على هذا القصر ؟

ـــ اجل يا استر نستولى عليه ونتحكم فيه .

ـــ من ذا الذى يستولى عليه ؟ !

ـــ انا وانت يا استر ، انا بدهائى ، وانت بجمالك ، اننى ما جئت الى هذا القصر الا لاتسلط عليه ، وأحرك رجاله ، ليعملوا على ما فيه مصلحتنا نحن اليهود .

فقالت له استر وهى ترمقه بنظرة فاحصة :

ـــ هذا حلم لذيذ ، وما احسب أن ذلك ميسور .

فقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة :

ـــ ما أيسر ذلك على من ينفق الأموال ، ويقدم مثل جمالك الفاتن البديع .

وصمت مردخاى قليلا ، ثم قال :

ـــ أتعرفين مموكان حكيم المملكة ، الذى لا يقطع الملك أمرا الا اذا استشاره ؟

ـــ نعم أعرفه .

ـــ انه طوع بنانى .

ـــ وبماذا استملت ذلك الشيخ الفانى ؟

ـــ أغرقته بهداياى .

فقالت وهى تضحك :

ـــ أنت الحكيم يا عماه .

ـــ انه ليس وحده الذى استملته الينا ، فهناك الخصيان السبعة ، الذين لا يغادرون الملك فى الليل أو فى النهار .

ورمقته من طرف عينها ، وقالت له فى خبث :

ـــ أتحسب أننا ننجح فى استمالة كل الرجال بالمال ؟

فقال لها مردخاى وهو يبتسم فى زهو :

ـــ من لم يأسره المال يأسره الجمال .

- ٣ -

تاهب القصر للوليمة الكبرى ، التى اعدها الملك احشويروس للأمراء ، وأشراف قومه ، ورؤساء مملكته ، وكان هدف الملك من هذه الوليمة أن يظهر للناس عظمته ، ليزداد فى أعينهم رفعة ، لذلك انفق على هذه الوليمة بسخاء .

وتوافد الأمراء والأشراف الى حديقة القصر الهائل ، واقبل الملك يتألق كجوهرة ، وبدأ الحفل ، وجاء الخدم يحملون كئوس الذهب والفضة ، ينطلقون بين اعمدة المرمر الهائلة ، التى كسيت ستائر بيضـــاء وخضراء وزرقاء ، وينسـسلون الى حيث جلس المدعوون ، يقدمون لهم الخمر ، وراح الجميع يعبون الشراب حتى ملئوا نشوة .

وانقضى الليل والجميع فى حبور ، حتى اذا قام الملك انصرف الجميع ليعودوا الى الوليمة فى اليوم التالى . واستمرت وليمة الأمراء والأشراف مائة وثمانين يوما ، الموائد تمد ، والخمر تصب فى البطون ، فتدير الرءوس .

واعدت الملكة وشـــتى وليمة للنســـاء ، فما كان الرجال والنساء يجتمعون فى مكان واحد ، واســـتمرت هذه الوليمة اياما واسابيع وشهورا .

واراد المــلك أن يشرك عامــة الشــعب فى الاعجـــاب بعظمته ، فدعا الشـــعب الى قصره ، ودعت المــلكة وشتى النساء الى جناحها ، وراح الخدم يصبون الخمر حتى جرت انهارا .

وانتشى الملك ، ولعبت الخمر برأسه ، فقال للناس :

ـــ ان امراتى اجمل امراة فى هذه البلاد .

وصمت الناس ولم ينبس احدهم بكلمة ، فقال الملك :

ـــ الا تصدقون ؟ سترونها الآن ، وستحكمون انها اجمل امراة فى الوجود .

ونادى الملكُ خصيانه :

ـــ بزتا . حربوتا اذهبا الى الملكة وقولا لها اننى اطلبهـــا هنا ليرى الناس جمالها البديع .

وذهب بزتا وحربوتا ، وكان مردخاى حاضرا هذه الوليمة ، فلمعت فى ذهنه فكرة ، فاقترب من الخصى كركس ، وهمس فى أذنه :

ـــ هذا فظيع . ليت الملكة ترفض الحضور . كيف تحضر الملكة الجليلة الى هؤلاء السكارى ؟ انها لو جاءت لسقطت هيبتها ، من يدرى ماذا تفعل الخمر برءوس هؤلاء الحمقى ، ما كان لمولانا أن يفعل هذا .

وصمت قليلا ، ونظـــر الى الخصى ، ليرى اثر كلامه فيه ، فالفى على وجهه دلائل الحيرة والتفكير ، فقال همسا :

ـــ لو كان لى من الأمر كثير أو قليل ، لذهبت اليها اشير عليها بعدم المجىء .

ولاح فى وجه الخصى العزم ، ثم انطلق الى جناح الحريم ، ومردخاى يرمقه ، وقد انتشرت فى صدره نشوة ، فقد بدأ ينفذ الخطة التى نسجها شيطانه ، وتلفت يبحث عن مموكان الحكيم حتى وقعت عيناه عليه ، فذهب منسلا اليه ، فلما رآه مموكان حياه فى حرارة وترحيب .

ووقف مردخاي يقدح ذهنه ، وينتقي الألفاظ التي يوحي بها الى مموكان دون ان يثير ريبه ، وبقي يترقب ، حتى اذا ما لمح الخصيان عائدين ، وسوس لموكان :

— انظر ! انهم يعودون خافضي الرءوس ، يخيل الي ان الملكة رفضت المجيء ، فلو انها رفضت اطاعة الملك لكان في ذلك اهانة لا للملك وحده ، بل للشعب جميعا .

وانتقل مردخاي من جواره بعد أن وسوس له بما يريد ، واندس بين الجموع .

وتقدم الخصيان الى الملك وقالوا :

— رفضت جلالتها الاذعان لأوامركم يا صاحب الجلالة ، وقالت انها لا تقبل أن تجيء تعرض نفسها على سكارى يترنحون .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن خفتت وزالت ، لما هب الملك غاضبا يصيح :

— أين مموكان ليرى رايه في هذه العاصية ؟

وتقدم الحكيم من الملك وهو يحني راسه ويقول :

— مولاي ؟

— ما رأيك يا مموكان فيما اتته الملكة الآن ؟

— ان ما فعلته يا مولاي ليس جريمة في حقكم وحدكم ، يا صاحب الجلالة ، ولكنه جريمة في حق الشعب جميعا ، لقد سمع جميع النساء المدعوات الى وليمة الملكة وشتي بذلك الرفض ، وما هو الا الغد حتى يكون نبأ هذا الرفض قد ملأ البقاع ، وبلغ مسامع النساء في مشارق مملكتكم ومغاربها ، فاذا ما أمر رجل امرأة أمرا رفضت طاعته تشبها بالملكة وشتي التي رفضت طاعة الملك .

ان الأمر أخطر من ظواهره يا صاحب الجلالة ، لذلك يحتاج

فى معالجته الى قسوة وحزم حتى تعيد يا مولاى الى الرجال هيبتهم وكلمتهم المسموعة .

ان الأمر أخطر من ظواهره يا صاحب الجلالة ، لذلك تطرد من القصر ، لتكون عبرة للنساء اللاتى يداخلهن الغرور ، فيعصين أوامر أزواجهن ، وليكتب بذلك الى جميع عمالك يا مولاى ، ليذاع على الشعب ، مؤكدا أن الرجل هو رب البيت ، الآمر وحده فيه .

فأعجب الملك برأى حكيمه ، فقال :

— على بالكتاب ، ليكتبوا الى اقطار مملكتى ، أن الملك احشويروس قد طلق الملكة وشتى ، لعصيانها أوامره ، فما كان لامرأة أن تعصى زوجها ، لأنه وحده الحاكم فى بيته .

وخرجت الأوامر الملكية الى فارس والهند والبلاد الممتدة الى كوش ، وخرج الناس من الوليمة يتحدثون فى هذا الأمر الخطير ، وأسرع مردخاى الى استر ابنة أخيه يزف اليها نبأ انتصاره الكبير .

— ٤ —

دخل مردخاى على استر ، فالفاها كعادتها أمام المرآة تتزين ؟ وتتطلع فى اعجاب الى حسنها ، فدنا منها وقال وهو يتفرس فى مفاتنها :

ـــ يا استر آن لهذا الجمال أن يسود .

ولمحت استر تلك الابتسامة العريضـــة التى ارتسمت فى وجهه ، فاستدارت وقالت له :

ـــ ماذا جرى يا عمى ؟

فقال مردخاى وهو يرنو اليها فى خبث ، والسعادة تلوح فى وجهه :

ـــ طلق الملك الملكة ، وطردها من قصره .

فقالت استر وهى تنظر اليه مليا :

ـــ ومالى اراك سعيدا كأنما عادت السعادة الى شعب اسرائيل ؟

فقال مردخاى وهو يمد ذراعه فوق كتفها البديع :

ـــ أغريرة انت يا استر أم تتخابثين ؟ أما تدرين اهميـــة ذلك لنا ؟ أن الملك بعد أن طـــرد زوجته سيحس وحشـــة ، وسيشعر بفراغ ، وسينشد السلوى ، سيبحث عن العذارى الفاتنات فى مملكتـــه ، وهل فيها من هى أفستن منك يا استر ؟ سأقدمك اليه لتسلبيه قلبه ، وتقوديه حيث تقودينه ، ولن تقوديه

الا الى ما فيه مصلحة بنى اسرائيل ، ستصبحين مالكة فؤاده ، فجمالك آسر قاهر ، تعنو له المهج ، وتذل له أعناق الجبارين . انك يا استر درة ، وستكونين أغلى درة فى مملكته ، فما خلق الله هذا الجمال الا للملوك .

فقالت استر :

— أتقدمنى يا عمى حظية للملك ؟

— وماذا فى ذلك يا استر ، وهل كان هذا يشين يهودية ؟ ! على كل يهودى أن يقدم أى شىء وكل شىء فى سبيل بنى اسرائيل ، عشت أعمل لهذه اللحظة مضحيا بالعمر كله ، لأجنب اليهود نكبة من النكبات التى خصهم بها الزمن ، فاذا لاحت لى الفرصة اتحسبين اننى ادعها تمر ؟ لا يا استر ، اننى ربيتك بعد موت أخى وزوجته ، واتخذتك بنتا ، وصرت أرعى جمالك واتعهده ، لأقدمه قربانا الى اله اسرائيل ، يا طالما فكرت فى الطريقة التى استغل بها هذا الحسن الفتان ، لقد شغلت ذهنى آلاف الفكر ، وها هى ذى الفرصة الذهبية تلوح .. لا تحسبى يا استر أنها جاءت سهلة هينة ، انها ما لاحت لنا الا بعد كد وتدبير ، وامعان فى الكد والتدبير .

وغمغمت استر وقد شرد بصرها :

— حظية الملك .

— أجل ، حظية الملك ، حظية الملك التى تقدم جسدها صيانة لمصالح شعبها ، يا لها من تضحية كريمة خليقة بنسا يا استر .

وصمت قليلا وفكره يعمل ، ثم قال هامسا :

— غلمان الملك رهن اشارتى ، ساوحى اليهم أن يشيروا عليه أن يبعث رسله الى انحاء مملكته يلتمسون العذارى الفاتنات ،

ويدفعون بهن الى هيجاى حارس النساء ، ويدخلونهن على الملك . فمن راقت عينيه ، فلينصبها ملكة مكان وشتى ».

اطمئنى يا أستر ، فهيجاى صديقى ، سأسخو عليه ، ليتفنن فى تطييبك وتزيينك حتى اذا دخلت على الملك سلبته لبه وارادته ، فصار أسير جمال بنت اليهود .

فقالت استر حالمة :

ـــ لكأنما كل ذلك قد انتهى .

فقال مردخاى وهو يتطلع اليها فى اعجاب :

ـــ انى أراك الساعة يا استر وعلى راسك الجميل يتألق تاج مملكة أحشويروس !!

فقالت وقد التمعت عيناها رغبة .

ـــ يا للأحلام العذاب !!

— ٥ —

بعث الملك رسله الى انحاء مملكته يلتمسون الفتيات الأبكار الجميلات ، وتوافدت الى القصر فتيات رائعات الحسن ، ممشوقات القد ، كن أمشاجا من الروعة والجمال ، ودفع بهن الى هيجاى حارس النساء ، ليطيبهن بالعطور والأدهان .

وفى ذات يوم همس مردخاى فى أذن هيجاى ، أنه عثر على تحفة من تحف الجمال ، وطلب من صديقه أن يأتى معه ليراها ، فانه على ثقة من انها ستبهر الخصى الخبير فى النساء !!

وانطلق هيجاى ومردخاى الى حيث كانت استر ، فلما وقعت عينا هيجاى عليها ، وهى تتلألأ وتلمع ، لاح فى وجهه الاعجاب وهمس :

ــ يا للجمال ! انها كنز يا مردخاى .

فقال مردخاى وهو ينحنى امام الخصى :

ــ اننى أضع هذا الكنز بين يديك يا هيجاى ..

فقال هيجاى ، وعينه الفاحصة تجول فى مفاتن الفتاة :

ــ جمال طاغ ، لا يستطيع أن يثبت أمامه انسان ، ابعث بها الى بيت النساء ، وسأنزلها فى أفخم مكان ، اننى لم انتخب من بين مئات الوافدين الى القصر الا سبع فتيات ، سأضم اليهن استر .

فقال مردخاى وهو فرحان :

ــ غدا سأبعث بها اليك .

وخرج هيجاى ، واقبل مردخاى على استر يضمها اليه نشوان بخمر النصر ، وراح يهمس فى انفعال :

ــ غدا يا بنت أخى يفضح جمالك جمالهن ، كما يفضح نور الصباح أضواء السرج .

تأهبت استر للانطلاق الى بيت النساء ، فاقترب مردخاى منها وقال لها :

— تذكرى يا استر وصاياى لك ، اياك ان يعرف أحد أنك يهودية ، لأنه اذا انكشف هذا الأمر فقدنا عطف الناس ، تذكرى يا استر أنك ما دخلت هذا القصر الا لتسهرى على مصالح بنى اسرائيل ، ان قلوب اليهود جميعا ملتفة حولك ، وآمالهم معقودة عليك . مصالح بنى اسرائيل أولا ، ثم يأتى بعد ذلك اى شىء .

وأقبل غلام من غلمان القصر ، ليأخذ استر الى بيت النساء ، فسارت متأنقة متألقة ، وقبل أن تغادر المكان قبلت مردخاى ، وانطلقت وهو واقف يرقبها خافق القلب ، فلما اختفت عن عينيه غمغم :

— اذهبى يا استر فى رعاية اله اسرائيل .

ودخلت استر الى بيت النساء ، فألفت فتيات أنضر من الورود ، وأطيب من الأزهار ، فمشت فى صدرها الرهبة ، وكادت تتعثر من الخوف ، ولكنها تذكرت اطراء مردخاى وهيجاى لجمالها ، فاستردت ثقتها ، ورفعت رأسها تيها بحسنها

ودفع بها الى هيجاى ، فكان يعالجها بالأدهان والطيب

والمطور الأيام والاسابيع والشهور ، فزادت استر روعة على روعة ، وجمالا فوق جمال .

كان هيجاى يدفع الى الملك بعذراء كل ليلة ، فما تنقضى الليلة ، ويلوح نور الصباح ، حتى يدفع بالمراة الى حارس السرارى ، لتضم الى قطيع النساء المترقبات اشارة من الملك للتسرية عنه ليلة .

كانت استر ترقب العذارى الداخلات الى مخدع الملك اول الليل ، الخارجات منه اول النهار وفى قلبها فرحة ، لأن احداهن لم ترق عينى الملك ، فمد ذلك فى حبل الأمل امامها ، لانه لو استولت امراة على قلبه واتخذها ملكة مكان وشتى ، قبل أن تدخل هى عليه ، لكان فى ذلك تحطيم لآمالها ، وانهيار للرؤى المذاب التى تتراءى لها ، ولكن ما كانت تلك الفرحة تدوم ، بل كانت تغيض اذا ما خطر على بالها أن مصيرها قد يكون كمصير الاخريات ، اللاتى كان كل حظهن فى هذا القصر ليلة واحدة فى فراش احشويروس ، ليلة دافئة مليئة بالاحلام ، تعقبها ليال طوال باردة ، كلها سأم وملل وفراغ .

وجاءت الليلة المرتقبة ، ليلة دخول استر على الملك ، فاخذ هيجاى يتفنن فى تزيينها ، حتى كانت آية من آيات الحسن والابداع ، وقبل ان تدلف الى مخدع الملك ، راح يوصيها بما تفعل ، لتنال فى عينى الملك حظوة .

وانقضت الليلة كحلم بهيج ، حلم كله نشوة ، واقبل الصبح ، فذهبت استر الى حجرتها ، واستلقت مسترخية على فراشها ، واطلقت لافكارها العنان . راحت مشاهد الليلة الماضية تمر امام اعين مخيلتها ، انها لترى الملك يدنو منها متدلها ، وانها لترى نفسها وهى تتثنى فى دلال ، يا لها

من ليــلة ! ترى أتطفــو ذكراها فى رأس الملك أم ترسب ، كآلاف الليالى التى أمضاها غارقا فى اللذة ؟ ؟

ومر النهار واستر تترجح بين اليأس والرجاء ، وما وافى الليل ، حتى كان هيجاى عندها يزف اليهـا البشرى الغالية ، ان الملك يطلبها ليلة ثانية .

وتصرمت الليالى ، والملك يطلب استر كل ليلة ، فقد شغف بها حبا ، وفى ليلة من الليالى لعبت به الخمر وافانين المرأة . فوضع التاج على رأس استر البارعة .

واعد الملك وليمة هائلة ، دعا اليها الأمراء وأشراف القوم ورؤساء العشائر ، وأعلن انه اتخذ استر له زوجة ، وانتهت وليمة استر ، وقد أصبحت بنت اليهود ملكة على البلاد ، بينما كان مردخاى الذى فكر ودبر واقفا بباب القصر ، تشيع فى صدره نشوة عارمة .

— ٧ —

اصبحت استر سيدة القصر ، ومردخاى حارس بابه ، وعلى الرغم من ذلك كانت الرسل تمشى بينهما ، كانت تصــل اليه أنباؤها ، وتصل اليها انباؤه .

وفى ذات يوم ، لاح فى ذهنه خاطر ، ان استر أصبحت ملكة ، فما يدريه أنها قد تستمرىء هذه الحياة ، وتنسى حكمة دخولها القصر ، فاذا وقعت لبنى اسرائيل محنة ، تراخت فى مد يد العون اليهم ، فتكون الطامة العظمى ، اقلقه ذلك الخاطر ، وراح يقدح فى ذهنه حتى اهتدى الى أن خير ما يفعله ، أن

يتقرب هو نفســـه الى المــلك ، فهـــو يثق فى نفسه أكثر من ثقته فى غيره ، ولو كان ذلك الغير استر نفسها .

وقر رايه على ان يعمل ليتقرب من أخشويروش ، ولما كان يعلم أن القصور مسارح للدسائس والمؤامرات ، أخذ يتحسس لعله يقع على مؤامرة يرفع أمرها الى الملك ، فتنيله القـــرب والحظوة .

راح مردخاى يسترق السمع لكل حديث ، ويحصى حركات رجال القصر وسكناتهم ، وفى ذات ليلة رأى غلامين من غلمان الملك يتستران بالظلام ، ويتسللان الى ركن قصى يتناجيان ، فانطلق خلفهما كطيف ، ووقف قريبا منهما يحتمى بالجدران ، يتسمع .

كان الغلامان غاضبين حانقين ، فراحا يتآمران على الملك ، وما انتهيا من بثهما ونجواهما ، حتى انطلقا الى القصر على حذر ، ولو التفتا خلفهما لتيقنا أن سرهما قد افتضح .

وبعث مردخاى الى استر أن ترفع الى الملك أن مردخاى قد قد وقع على مؤامرة دنيئة بيتت بليل ، أن بغثان وترشى خصيى الملك ، حارسى الباب يدبران اغتياله ، فهرعت استر الى الملك تنبئه بالخبر .

وقبض على الغلامين ، وجرت محاكمتهما ، فثبتت ادانتهما . وحكم عليهما بالقتل والصلب ، أما مردخاى فقد فكر الملك فى مكافأته .

كان الملك يثق فى هامان ، لانه كان حصيف الرأى ، بعيد النظر ، فكان يستشيره فى كل أموره ، فبعث اليه ، وقال له :

— ان مردخاى انقذ حياتى ، وانى أفكر فى ان أدنيه منى ، فماذا ترى ؟

فقال هامان :

— انني يا مولاى ارى ان تمنحه جائزة ، وان تدعه حيث هــو .

— لماذا يا هامان ؟

— لانه يهودى ، واليهودى لا يخلص الا لنفسه .

وطلب الملك استر ، فدخلت عليه ، وجعلت تداعبه فى رقة ودلال ، ثم قالت له :

— ماذا فعلت لمردخاى يا مولاى ؟

فقال أحشـويروش وهو يضحك :

— أعطيته ما يتمنى ، قيل لى ان غاية ما يتمناه يهودى أن تملأ جيوبه ذهبا .

واحسست استر قهرا ، ولم تعترض خشية أن تكشف عن خبيئة نفسها ولكنها رأت أن تفعل شـــيئا ، قد تستغله يوما ، فقالت :

— ان ما فعله مردخاى يستحق أن يسجل يا مولاى .

فقال الملك :

— هذا حق .

وأمر أن يدون ذلك فى سفر أخبار الأيام .

— ٨ —

كان اعجاب الملك بهامان يزداد يوما بعد يوم ، فقد أثبت في اكثر من مناسبة اخلاصه للعرش وللبلاد ، أراد الملك أن يكافئه ، فرقاه ، وجعله وزيره الأول .

وفى ذات يوم دخل هامان على الملك ، وقال له :

ــ ان اليهود العبيد الذين وفدوا الى بلادنا سبيا من أورشليم ، قد عظم نفوذهم فى البلاد ، أثروا واغتنوا واصبحوا أسياد المال المتحكمين فى الأسواق والأقــوات والأرزاق ، انهم يتــلاعبون بالأسعار ، ويمتصون دماء شعبك يا مولاى .

ولاح فى وجه أخشويروش الاهتمام ، فراح هامان يقول فى اخلاص :

ــ لو كان نفوذهم قد قصر على دنيا المال لهان الخطب ، ولكن نفوذهم تغلغل فى كل مكان ، علموا الرؤساء الرشوة ، وبذروا فى قلوبهم الطمــع ، وغرســوا فى النفس الأحقاد ليشغل الشعب بأحقاده عنهم ، فيسلبوه هناءه وهم آمنون غضبه ، انهم يا مولاى أس كل البلايا فى البلاد . انهم ....

وصمت هامان فجأة ، فقال فى لهفة :

ــ انهم ماذا يا هامان ؟

فقال هامان وهو يتحامى أن تتلاقى عيناه بعينى الملك :

ــ معذرة يا مولاى ، انهم لو قدروا على ان يقوضوا عرشكم تحتكم لقوضوه .

فبان الغضب فى وجه الملك ، وقال :

ـــ انهم اخبث أهل الأرض ، ماذا ترى أن نفعل فيهم ؟

فقال هامان فى حماسة :

ـــ نستأصلهم ، نقتل أطفالهم وغلمانهم ، وشبابهم ونساءهم ، ورجالهم وشيوخهم ، فنستريح من شرورهم .

فقال الملك فى انفعال :

ـــ هذا هو الرأى يا هامان .

فقال هامان فى حماسة :

ـــ اننى على استعداد الان أدفع لمن يقومون بقتلهم عشرة آلاف وزنة من الفضة ، يؤتى بها الى خزائن الملك .

فقال الملك وهو يخلع خاتمه :

ـــ ابق الفضة لك ، خذ خاتمى ، وأصدر الى الولاة امرا بقتل كل يهودى فى ولاياتهم .

ودعا هامان كتاب الملك ، وأمرهم أن يكتبوا الى الدهاقنة والولاة بقتل جميع اليهود فى ولاياتهم ، فى الثالث عشر من شهر آذار ، ولما تمت كتابة الرسائل ، ختمت بخاتم الملك ، وانطلق الرسل الى الولاة والحكام .

— ٩ —

علم مردخاى بالأمر الملكى القاضى بابادة اليهود فى فارس والهند ، والبلاد الممتدة الى كوش ، فشــق ثيــابه ، وانطــلق الى ميــدان القصر يصرخ وينوح ، وراح يحثو التراب على رأسه ، ورأى جوارى استر ما حل بمردخاى ، فدخلوا عليها ، وقالوا لها :

ـ ان مردخاى فى ميدان القصر يصرخ ، وقد ارتدى ثيابا بهلهلة ، فاغتمت استر ، وبعثت اليه ثيابا جديدة ليرتديها ، فرد اليها الثياب ، وارسل لها مع رسول :

ـ ان هامان قد استصدر أمرا بقتل جميع اليهود فى الثالث عشر من شهر آذار ، لقد نزلت المحنة بشعب اسرائيل ، فوجب عليها أن تمد يد العون الى شعبها الذليل ، صار عليها أن تدخل على الملك ، مستغلة سلاح جمالها ، ملتمسة منه الرأفة بأهلها .

فبعثت اليه مع الرسول :

ـ انسيت يا مردخاى تقاليد هذه البلاد ؟ كيف أدخل على الملك دون أن يدعونى ، ان كل من يدخل عليه دون دعوة نصيبه القتل ، الا من يمد له الملك قضيب الذهب ، ماذا يكون حالى لو دخلت عليه ، ولم يقدم الى قضيب الأمان ؟ ! سيكون مصيرى القتل يا مردخاى ، وان مما يزيد فى مخاوفى أن الملك لم يطلبنى منذ ثلاثين يوما .

فبعث اليها مردخاى :

ـ لا تحسبى يا استر أنك ستنجين من هذه المذبحة ، لأنك زوجة الملك . انك يهودية يا استر قبل ان تكونى ملكة ، وما أيسر أن يبلغ الملك ذلك ، انك ستقتلين حتما اذا احجمت عن الدخول عليه ، اما اذا اقدمت ودخلت على أخشويروش العاشق الولهان ، فمن يدرى ؟ فقد يكون فى ذلك حياتك وحياة شعبك ، اننى على يقين يا استر ان فى اقدامك بركة ، فتشجعى واقدمى انقاذا لنفسك ، ان لم يكن انقاذا لحياتنا .

نظرت استر الى المرآة ، فحز فى نفسها أن يكون مآل

جمالها الرائع العدم ، انها لو استكانت لكان في ذلك القضاء الأخير ، وانه لعزيز عليها أن تستسلم للموت دون أن تدفعه عن نفسها ، وعزمت على أن تدخل على الملك دون أن يدعوها ، فقد يكون في الاقدام على الموت دفع له ، وابعاد لخطره .

وراحت استر تتاهب للمعركة القادمة ، المعركة الفاصلة بين الحياة والموت ، فجعلت تشحذ سلاحها ، فراحت تتفنن في ابراز مفاتنها ، ثم تقدمت الى قاعة العرش ، ومشاعر الرهبة تنبثق من أعماقها .

نظرت استر ، فرأت الملك جالسا على عرشه ، وهامان وبعض الوزراء واقفين خاشعين ، فخفق قلبها في شدة ، ولكنها لم تنكص على عقبيها ، بل تقدمت وقد رفعت رأسها ، وانطلقت وكل خالجة فيها تنتفض رهبة . وثبتت عيناها على يد الملك ، وأرهفت حواسها .

تقدمت رويدا رويدا ، ولمحها الملك فلمعت عيناه سرورا ، ورفت على شفتيه ابتسامة ترحيب ، ورفع يده بقضيب الذهب ، فأسرعت استر وقد ردت اليها روحها ، فقد رضي عنها الملك ، ووهب لها حياتها .

وأقبل الملك عليها ، وقال لها في بشاشة :

— ماذا تطلبين يا استر ، لك أن تسأليني نصف مملكتي .

فقالت استر في رقة :

— كل ما التمسه أن يشرفني مولاي وهامان بالمجيء اليوم الى الوليمة التي أعددتها لجلالتكم .

فقال الملك وهو يرنو اليها في شغف :

— سنحضر يا استر .

وأعـــدت اســـتر وليمة فاخـــرة ، وتأهبت لمقابلة المـــلك وهامان عدوها الخطير . وجاء الملك ووزيره ، وبالغت اســـتر في اكرامهما ، ولما دارت الكئوس التفت الملك إلى اســـتر وقال لها :

ـــ ماذا تطلبين يا استر ؟ لك أن تسأليني نصف مملكتي .

فقالت استر في دلال :

ـــ ان كل ما أطلبه هو رضى مولاي ، وانه ليـــدخل على قلبي البهجة لو شرف مولاي، وهامان الوليمة التي أعدها غدا لجلالتكم .

وانصرف الملك وهامان ، وهما يحسان نشـــوة ، الملك تلعب به نشوة الخمر ، وهامان تملؤه نشوة الزهو ، فقد خصته الملكة بدعوتها مع الملك ، وميزته عن سائر الأمراء !

ودخل الملك الى جناحه ، واستلقى في الفراش الوثير . وحاول أن يغمض عينيه ، واذا بصورة استر تحتـــل رأسه ، انه يراها بالغـــة الروعة والجمال وهي تقتحم عليـــه قاعة عرشه وانه ليراها نابضـة بالحيـــاة وهي تســـقيه اليوم كئوس النشوة ، وأحس حنينا اليها ، وهفت روحه الى لقائها ، فبعث يدعوها اليه .

وجاءت استر ، وهي آية في الـــروعة والحسن ، فـــراح الملك يضمها اليه في وله وهيام ، وتقضى الوقت بهيجا ، وتمددت استر في اغراء ، وقالت :

ـــ ان أروع لحظات حياتي يا مولاي هي تلك اللحظـــات التي أقضيها معك ، وتلك السويعات التي أخلو فيها بنفسي لأفكر فيك .

فقال الملك وهو يرمقها في اعجاب :

ـــ جميل يا استر ان يستطيع الانسان ان يعيش فى ماضيه السعيد .

ورأت استر ان الفرصـــة مواتية لتنفذ الى غرضـــها ، فقالت :

ـــ ما ألذ تقليب صـــفحات الماضى يا مولاى ، ان بعض الحوادث اذا عشنا فيها بأفكارنا لتملؤنا نشـــوة أكثر من تلك النشوة التى شعرنا بها يوم عشنا مع تلك الحوادث فى واقع حياتنا .

فقال الملك وهو يعبث بيده فى شعرها السبط المتناثر على الوسائد فى روعة :

ـــ هذا حق يا استر .

فقالت استر وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة :

ـــ ما رأيك يا مولاى فى أن نمضى ليلتنا فى ماضينا ؟

ـــ ماذا تقصدين يا استر ؟

ـــ أن نمضى هذه الليلة فى قراءة سفر الأيام ، فنبعث الى الحياة تلك الوقائع الرائعة التى طواها الزمن .

ـــ فكرة جميلة .

وأمر الملك غلمانه أن يحضرو سفر أخبار الأيام ، فلما أتوا به تناولته استر واخذت تقـــرأ فيه ، والمـــلك يصغى اليهـــا شارد الفكر ، يتذكر حوادث الأيام . واســـتمرت اســـتر فى القـــراءة حتى اذا بلغت قصـــة مردخاى وتلك المؤامرة التى كانت تدبر لاغتيال الملك تمهلت فى قراءتها ، حتى اذا انتهت منها قالت :

ـــ هذا رجل أسدى الى الدولة اجل خدمة .

فقال الملك :

ـــ هذا حق .

ـــ ماذا فعلت له يا مولاى ؟

ـــ لا اذكر يا استر أننا فعلنا له شيئا ، كل ما أذكره أننا منحناه بعض المال ، ماذا يقول الناس عنا ، اننا اخطأنا فى حقه ولا شك ، رجل ينقذ حياتنا ولا نكرمه ولا نطعمه ، هذا نكران !

فقالت استر وهى تطوقه بذراعها :

ـــ ليت الذين حولك يا مولاى مثل هذا الرجل الذى أفعم قلبه بالاخلاص .

واحس الملك حرارة أنفاسها ، فقال فى حماسة :

ـــ غدا سنفكر ، أنا وهامان فى تكريم هذا الرجل .

فقالت استر ، وقد اختلطت أنفاسها بأنفاسه :

ـــ لى رجاء يا مولاى .

ـــ ماذا يا استر ؟

ـــ اذا أردت أن يكون رأى من تستشيره خالصا ، فلا تذكر له اسم من تريد تكريمه .

ـــ فما أذكر له ؟

ـــ سله عما يشير بفعله لرجل يسر الملك أن يكرمه .

أدار عبير أنفاسها رأسه ، فقال :

ـــ غدا يا استر نتحدث فى الأمر .

نغمغمت استر :

ـــ فى وليمة الغد .

وغابا عن كل شىء الا عن نفسيهما .

وافى ميعاد الوليمة التى أعدتها استر ، فأقبل أخشويروش وهامان . وما أدارت استر عليهما كئوس الخمر ، حتى تذكر الملك ما كان فى الليلة الماضية ، فقال لهامان وهو يرنو الى استر :

— بماذا تشير علينا يا هامان فى رجل يسرنا أن نكرمه ؟

كان هامان يشعر بحب الملك له ، فحسب أن الملك ينوى تكريمه لاخلاصه وتفانيه فى عمله لمصلحة الدولة ، وانه ما سأله هذا السؤال الا ليترك له فرصة الافصاح عما يحب وما يشتهى ليحققه له ، فقال هامان :

— أرى يا مولاى ان يكلف أحد الأشراف بالباس ذلك الرجل اللباس السلطانى ، وأن يقدم له فرس الملك ليركبه فى ساحة المدينة ، وأن ينطلق الشريف أمامه يهتف : « هذا جزاء من يرضى الملك عنه ، ويأمر بتكريمه » .

فقالت استر فى فرح :

— هذا هو الرأى يا مولاى ، يا لرجاحة عقل هامان !

وابتسم هامان فى خيلاء . وقال الملك :

— خذ اللباس والفرس يا هامان ، واذهب الى مردخاى ، ذلك اليهودى الجالس ببابى ، وافعل به كل ما قلته ، انه يسرنا أن نكرمه .

واحس هامان انقباضـــا ، فما كان يدور بخلده أن يكرم الملك يهوديا بعـــد ان اهـــدر دم يهود مملكتـــه جميعا ، وفطنت استر الى عبوسه ، فافترت شفتاها عن ابتسامة خبيثة ، وقالت :

ـــ ماذا يا هامان ؟ لكأنما أمر مولانا أدهشك ؟

فقال وهو يكتم غيظه :

ـــ سأفعل ما أمرنى به مولاى .

خرج هامان وفى صدره أتون نار ، وذهب الى مردخاى ، والبسه لباس الملك ، واركبه فرسه ، وانطلق أمامه ينادي :

ـــ هذا جزاء من يرضى الملك عنه ، ويأمر بتكريمه .

وتجمهر اليهود فى ساحة المدينة يهتفون فرحا ، وسار هامان يترنح يمكاد يموت من الكمد ..

ووفد الليل بهدوئه وسكونه واسراره . بعث الملك فى طلب استر ، فأقبلت تخطر رقيقة كالنسيم ، ناعمة كالأفعى ، وارتمت فى احضـــانه ، كأنما تلوذ به وتحتـــمى فيه ، فمرر يده على عنقها العاجى وعلى جسدها الترب ، وهمس فى وجد :

ـــ ما أروع هذا العنق البديع !

ـــ هذا العنق البديع يا مولاى بستعمل فيه السكاكين .

فقال أخشويروش مرتاعا :

ـــ من الذى يجرؤ أن يمسه ؟ !

ـــ من اساء استغلال عطفكم ورعايتكم .

ـــ من يكون ؟

ـــ هامان يا مولاى ، هامان الذى حرضكم على اليهود ، الذين أخلصوا لكم ، والذين ما كان لهم هم الا توطيد دعائم ملكم ، والذين لم يرتكبوا اثما ، ولم يفعلوا ذنبا الا انهم أحبوكم .

فقال أخشويروش :

ــ انى لا افهم شيئا ، وما علاقتك انت بهامان وبامره بقتل اليهود ؟

ــ اننى يهودية يا مولاى ، فاذا نفذت امر القتل فيهم قطعت راسى معهم . بحق حبى يا مولاى استوهبك حيـاتى وحياة شعبى .

ولفحت وجهه انفاسها الحارة ، ورنت اليه بعينيها الجذابتين اللتين اصبح عبدا لهما ، فتحرك حبه ، فضمها اليه ، انه لا يطيق النأى عنها ، فمن هو هامان الذى يريد أن يفرق بينه وبينها ؟ ونسى الملك الغارق فى الخمر والشهوة ما اسداه هامان اليـه وإلى مملكته ، فصاح بغلمانه :

ــ اذا جاء هامان المعتوه ، فادخلوه على .

— ١١ —

واقبل هامان ، فأسرع اليه أحد أعوانه يفضى اليه ان الملك حاقد عليه ، فعجب هامان ، واشتد عجبه ، فما دار بخلده أن يحقد الملك عليه ، ورأى أن يدخل على استر يسألها سبب ذلك الانقلاب ، وانه ليرجو أن يجد عندها عونا ، فقد أكرمته واصطفته على سائر الأمراء .

انطلق الى جناح الملكة ، واستأذن فى الدخول ، فأذنت له بعد أن بعثت الى الملك من يوسوس له أن هامان فى جناح الملكة . ودخل هامان وهو مضطرب ، وما ان وقع بصره على استر حتى قال فى صوت ينم عن المشاعر المشتعلة فى جوفه :

ـــ بلغنى يا مولاتى أن الملك حاقد على ، ولا أدرى لغضبه سببا .

وصمت وانتظر أن تتكلم الملكة ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، بل رمته بنظرة لم يرتح لها ، فملك نفسه ، وقال :

ـــ ليتنى أعرف ذلك الذى مشى بالبهتان بينى وبين مولاى .

فهبت كنمرة ، وقالت فى قسوة :

ـــ أنا يا هامان .

بهت ، وألجمته المفاجأة ، وطارت نفسه شعاعا ، وقال فى اضطراب :

ـــ انت ، أنت يا مولاتى ؟ !

ـــ نعم أنا يا هامان ، أنا استر اليهودية التى وسوست للملك أن يبيدها ويبيد شعبها ، حتى استجاب لوساوسك .

ـــ مولاتى ، ما كنت أعرف أنك يهودية ؟

فقالت له فى سخرية :

ـــ آه ! لو كنت تعرف ذلك لفرشت طريق اليهود بالورود .

ـــ لا ، ما كنت افعل الا ما فيه مصلحة مولاى ومصلحة بلادى .

ـــ وماذا كنت تفعل ؟

ـــ كنت أشير عليه أن يبيدهم ، لأن فى ابادتهم حياته وحياة شعبه .

ـــ يا عدو اليهود امقتك من كل قلبى ، امقتك بكل جارحة من جوارحى ، أمقتك مقتى للموت .

ـــ يحز فى نفسى أن سقط الملك فى حبائلك ، انى حزين ،

حزين حتى الموت ، لان أعداء هذه البلاد تسلطوا عليها . وأصبح عبيد الأمس السادة الحاكمين .

ـــ لن يطول حزنك يا هامان ، سـأريحك من آلام نفسك الخبيثة .

ودنا هامان منها ، وهو ينظر اليها شزرا ، فصاحت به :

ـــ ابتعد عنى ، يا أبغض من وقعت عليه عيناى ، ابتعد .

وفتح الباب ، ودخل الملك وصوت استر يرن فى اذنيه . فثارت ثائرته ، ورأى هامان بالقرب ممن شغف بها حبا ، فتحركت غيرته ، فصاح :

ـــ يا للئيم الذى أكرمته فكفر بنعمتى ، ودخل على أهلى فى غفلة منى .

فهتف هامان فى توسل :

ـــ مولاى ، أتوسل اليك ان تصغى الى .

ـــ اخرس يا فاجر .

ودنت استر حتى التصقت بأخشويروش ، فصاح :

ـــ ما كان لمن يتنكر لى أن يعيش .

ـــ انثى يا مولاى خادمك الأمين .

ونادى الملك رجاله ، وصاح فيهم :

ـــ خذوا هذا القذر واقتلوه .

ـــ مولاى ! مولاى .

وانقض الرجال على هامان الأجاجى ، وخرجوا به ، فغمغمت استر فى راحة :

ـــ الى الجحيم يا عدو اليهود .

قتــل هامان ، فخلا الجو لاستر ، فأصبح الملك أطــوع لها من بنانها ، تحركه كيف تشـاء ، فكانت تنفذ أهدافها بين رشف الكئوس ، ورشف الثغور ، فمكنت لمرخادى فى القصر ، وقربته من الملك ، حتى أمر بمنحه ضياع هامان وقصره وأملاكه .

وظلت استر به حتى اقنعته أن ينقض أمره القاضى بقتــل اليهــود ، فدفع الملك بخاتمه الى استر ومردخاى ، فبعثــا الى كتاب الملك وامراهم أن يكتبوا الى الولاة أن الملك العادل أحشويروش قد عفا عن اليهود وأكرمهم ، وخصهم برعايته . وخرج الرسل على الخيل والبغال ، وانطلقوا الى الهند وفارس والبلاد الممتدة الى كوش ، يحملون أوامر من أصبح العوبة فى أيدى اليهود .

ولم تقتنع استر بما نالتــه ، فحقــدها على هامان لم يطفىء لهيبــه المــوت ، انهــا تحس رغبــة فى أن تبطش بكل ما يمت بسبب اليه ، فراحت تحرض الملك على قتل أهل هامان . فاستجاب لها الرجل المسلوب الارادة ، وبطش بأهل من كان أخلص الناس اليه .

وتحركت فيها روح الشر ، فجعــلت تحــرض اليهود على التنكيــل بأهل البــلاد ، لتنزل الرعب بقلوبهم ، فتمكن لأهلها فى الأرض ، فقام فى مملكة أحشويروش عهد من الارهاب ، فى ظل استر ومردخاى ، وفى غفلة من الملك اللاهى عن شعبه

بالجسد الترب ، الذى يحوى بين جنبيه روحا تهفو الى سمك الدماء .

وراح مردخاى يقدم إلى الملك أسرابا من العذارى ، ليشغله باللذة عن المظالم الواقعة فى ملكه ، فصارت المملكة الهائلة الممتدة من الهند وفارس وكوش مرتعا خصبا لليهود ، فرضوا عن استر وقدسوها ، ودونوا قصتها فى الكتب المطهرة !

ســــــالومى

(ان الذين يكفـرون بآيات الله ويقتـلون النبيين بغير حق ، ويقتـلون الذين يأمـرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم ، أولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) .

« قرآن كريم »

— ١ —

الهدوء يلف كل شىء ، حتى كان زفيف النســيم يسمع ، والضوء الخافت المنبعث من ذبالة ضعيفة ، يبدد الظلام ، ويفرش المكان بنور واه لطيف ، ترتاح اليه النفوس ، وكان للمكان قدسية وجلال ، انه محراب نبى من أنبياء الله .

ولاح فى الضوء الخافت اللطيف شبح فتاة ترتدى البياض ، كمت فى خشوع تبتهل الى الله ، وجرت الدموع على خديها من لرهبــة والوجد ، وكان فى وجههــا نورانية وصــفاء . واقبل شيخ يسير الهوينى ، وقد نال منه الكبر ، يلوح فى وجهه التقى

والصلاح ، ودخل عليها زكريا المحراب ، فوجد عندها فاكهة فى غير أوانها . فتعجب وقال لها :

— يا مريم أنى لك هذا ؟

— هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وراح زكريا يفكر فى أمره ، انه قارب الثمانين ولم يرزق ولدا ، وحز فى نفسه أن يبقى فردا وقد مسه الكبر ، وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع فى ذلك وامرأته عاقر ، ووقع بصره على الفاكهة ، فأحيا ذلك موات الأمل فى نفسه ، ان الله الذى يرزق مريم الفاكهة فى غير أوانها ، قادر على أن يهب له ذرية ، على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر .

ودخل محرابه ، وسجد فى خشوع ، وجعل ينادى ربه فى حرارة :

— يارب . يارب . يارب .

وصفت نفسه وتفتحت روحه . واحس كأن ينبوعا من النور تفجر فى جوفه ، فبدد الظلام الذى كان يحتويه صدره ، وشعر كأنما دنا من ربه ، فقال :

— رب ، انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا .

واطرق خاشعا ، وفاض النور فى المحراب ، وسمع حفيفا خفيفا ، فتلفت ، فرأى ملكا كريما يقول فى صوت الخالق :

— يا زكريا ، انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .

فرفع زكريا راسه الى السماء ، وقال :

ــ رب ، انى يكون لى غلام : وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ !

قال الملك :

ــ كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .

ــ رب اجعل لى آية .

ــ آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا على قومه فى المحراب ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق قلبه من السرور ، ورمز الى قومه أن يسبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ، ووهب له يحيى .

— ٢ —

سار يحيى يقلب وجهه فى السماء ، ويمد بصره الى ملكوت الله ، فيحس رهبة وجلالا ، ويخشع قلبه ، ويعمل فكره ، كان يرى الله فى كل ما تقع عليه عيناه ، انه شب فى بيت النبوة ، فرأى أباه فى محرابه ، يعبد ربه ويقدس له ، فعرف الله ، وصار يهابه ويخشاه .

وانطلق وهو مشغول الى بيت المقدس ، فلمحه اترابه من الصبيان ، فهرعوا اليه ، وقالوا له :

ــ يا يحيى اذهب بنا نلعب .

فقال لهم وهو منطلق فى طريقه :

ـــ ما للعب خلقت .

ودلف إلى بيت المقـــدس ، فرأى المجتهدين من الأحبـــار والرهبان وعليهم مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، وهم يعبدون الله فى خشوع ، فتفتحت نفسه ، وهفت روحه اليهم ، ووقف ينظر وقد شاعت البهجة فيه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، وأحس هدوءا عجيبا .

وبقى فى المسجد هائنا ، تهيم روحه بملكوت الســـماء ، حتى اذا عاد الى داره احتــلت راســـه فكرة ، فأتى امه وقال لـــها :

ـــ يا أماه ، انسجى لى مدرعة من شـــعر ، بونسا من صوف ، حتى آتى الى بيت المقدس ، واعبـــد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فنظرت اليه امه وقالت :

ـــ حتى يأتى نبى الله زكريا عليــه الســـلام ، فأؤامره فى ذلك .

واقبـــل زكريا ، وتأهب ليـــدخل محـــرابه ، فجاءته زوجه وقالت له :

ـــ أن يحيى قد طلب منى أن أنسج له مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف .

فالتفت زكريا الى ابنه وقال :

ـــ يا بنى ، ما يدعوك الى هذا وانما انت صبى صغير ؟

فنظر الصبى الى أبيه بعينين يشع منهما بريق الذكاء وقال :

ـــ يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

فانشرح صدر زكريا وقال :

ـــ بلى .
ثم التفى الى زوجه وقال :
ـــ انسجى له مدرعة من الشعر ، وبرنسا من الصوف .

ـــ ٣ ـــ

جلس فيليبس ملك أورشليم على عرشه ، وجلست الى جواره زوجته هيروديا ، وراحت ابنتهما سالومى تنظر من النافذة ، ترقب طرقات المدينة العتيقة . كانت هيروديا رائعة الحسن ، أندى من الندى ، وأنضر من أزهار الربيع . كان جمالها اخاذا ، يعبث بالأفئدة ، وتهفو اليه القلوب .

واقبل هيرودس اخو الملك ، واخذ باسباب الحديث ، كان يحادث أخاه ، ويرنو الى هيروديا فى اعجاب ، ويرمقها فى اشتهاء ، وكانت عيناه الوالهتسان تتلاقيان وعينيها ، فكانت تحس حرارتهما ، وتفهم لغتهما ، فترقّ على شفتيها ابتسامة ، وتتألق عيناها ببريق السرور والارتياح .

واقتربت سالومى من هيرودس ، فمد يده وضمها اليه ، وقال وهو يرنو الى امها فى هيام :

ـــ يا لروعة حسنك !! جمالك يا سالومى قاهر جبار ، يهز أوتار القلوب ، ويزيد خفقات الأفئدة بين الضلوع .

فأشرق وجه هيروديا ، وقال فيليبس وهو يضحك :

ـــ دع يا هيرودس الفتاة ، لكأنك عاشق برح به الغـــرام .

فقال هيرودس فى حرارة ، وهو ينظر الى وجه زوجة أخيه الفتان :

— انها يا فيليبس دملمة رائعة لأقدر فنان .

وهام هيرودس بزوجة اخيه حبا ، وبادلته هيروديا ذلك الغـرام ، فراحا يتـلاقيان ، وملك حبـه لها حواسـه ، وسيطر عليه ، فلم يطق ان يشاركه فيها انسان ، ففكر ودبر ثم قابل هيروديا ، وناجاها وهمس لها بما عقد عليه العزم ، فلم تثر ولم تفزع ، بل شجعته على أن يقدم على انفاذ ما دبر ، فقد كانت امرأة تهوى المغامرات .

وفي الليلة الموعودة ، تدثر أعسوان هـيرودس بالظلام ، وانسلوا الى القصر وانطلقوا الى مخدع فيليبس ، فالفوا كل شيء هينا ميسورا ، فقد دبرت هيروديا الأمـر ، وأحـكمت التدبير ، كان باب مخدعه مفتوحا ، وما كان هناك احد من الحراس .

وانقض الرجال على فيليبس وشدوا وثاقه ، وقادوه الى سجن القصر ، وما تنفس الصبح حتى كان هيرودس متربعا على عرش أورشليم والى جواره هيروديا .

— ٤ —

راح يحيى يهيم فى البرارى ، ياكلَ من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد ، ويستر جسمه مدرعة من الشعر ، وعلى حقوية منطقة من جلد ، وكان يدخل بيت المقدس ينقل الى الناس أوامر السماء ، ويبشرهم بقرب ظهور المسيح ، ابن الانسان ، منقذ البشرية .

سار فى مسالك المدينة ، وقد التف حوله من صدقه ، وراح يقـول :

ـــ توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وعلم يحيى ما فعله هيرودس بأخيــه ، فغضب ، وأخذ يقول ان هيروديا لا تحل له ، واشتد فى تقريع المرأة ، وكان كلما قابل جماعة من بنى اسرائيل أعلن سخطه على ما اقترف مغتصب الملك والزوجة ، وبلغ هيرودس ما يقول يحيى ، فثار ، ولكنه لم ينفس عن ثورته ، كان يخشى أن يمد يده الى يحيى بأذى ، خشية أن يثور الشعب لنبيه .

وحقدت هيروديا على يحيى ، فطفقت تحرض هيرودس على البطش به ولكنه كان يتريث هيبة منه ، وخوفا من أتباعه ، وفكر فى انه لو قضى على فيليبس فقد تخفف حملة يحيى الشديدة التى تهدد ملكه ، وتزعزع سلطانه .

وبعث هيرودس جلاده الى السجن ، وما خرج منه حتى كان فيليبس جثة هامدة ، وذاع نبأ قتله ، فاشتد يحيى فى لوم هيروديا الفاجرة ، فأخذت تضغط على هيرودس لينتقم لها من ذلك الذى مرغ اسمها فى الأوحال ، فلم يجد مفرا من أن يذعن لها ، فأرسل جنوده فى طلبه ، فلما مثل بين يديه قال له :

ـــ الا تكف عنا ؟

ـــ حتى تكف عن معصية الله .

ـــ وكيف ؟

ـــ أن تهجر الفاجرة .

فثارت هيروديا وصاحت :

ـــ اقتلوه ، اقتلوه .

وقال الملك :

ـــ ولماذا اهجرها ؟
ـــ لأنها لا تحل لك .
وظهر فى وجه هيرودها الغضب الشديد ، وصاحت :
ـــ اقتلوه .. اقتلوه .
وقال الملك لحراسه :
ـــ القوه فى غيابات السجن .

ـــ ٥ ـــ

راحت سالومى تمرح فى القصر كفراشة طليقة ، وفى يوم من الأيام بينا كانت بالقرب من السجن ، وسمعت صوتا عميقا يهتف فى نبرات تهز القلوب :

ـــ فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هــو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه .

ووقفت سالومى تفكر فى ذلك النبى الذى رمى امها بكل سوء ، فأحست رغبة فى أن تراه ، ولم تستطع أن تقاوم اغراء الفكرة ، فاتجهت إلى حارس السجن ، وقالت له :

ـــ افتح هذا الباب .
ـــ لماذا يا مولاتى ؟
ـــ أريد أن أرى ذلك النبى .
ـــ محال أيتها الأميرة ، فقد حرم الملك أن يراه انسان .
ـــ كيف هو ؟ أهو شيخ كبير ؟

ـ لا يا مولاتى ، انه شاب رائع الحسن .
فدنت سالومى من الحارس ، وقالت فى دلال :
ـ افتح لأراه .
ـ مولاتى .. مولاتى ..
ـ افتح ، ولن يعلم الملك شيئا .
وفتح الحارس الباب ، فهبطت سالومى درجات ، وألفت نفسها فى حجرة ضيقة ، وقد وقف فى ركن منها يحيى ، بقامته المديدة ، وقسماته الجميلة ، ونظرت اليه ، فبدا فى وجهها العجب . كان ابيض البشرة ، واسع العينين ، حسن الصورة ، فمس حسنه شغاف قلبها ، فدنت منه خافقة الفؤاد ، فرفع رأسه ، وقال :
ـ من أنت ؟
ـ انا سالومى ابنة هيروديا أميرة الأردن .
ـ ابتعدى عنى ، فقد ملأت امك الأرض عصيانا .
ـ ما أحلى صوتك يا يحيى .
ودنت منه ، وهى تكاد تلتهمه بعينيها ، فارتد خطوات ، وهو يقول :
ـ لا تقتربى منى ، اذهبى ، اذهبى .
واحست شغفا فى أن تغرى نبيا ، فقال وهى تتثنى ، وترنو اليه فى وله :
ـ ما أجملك يا يحيى !
ـ غضى من بصرك يا فاجرة .
ومدت يدها تتحسس وجهه ، ولفحت أنفاسها الحارة جيده ، فنفر منها وصاح :
ـ ابتعدى عنى ، ابتعدى عنى .

وثبتت عينيها على فمه ، وقالت :

ــ ما أروع ثغرك يا يحيى ، تعال وضع شفتيك على شفتى .

ــ اذهبى .. اذهبى .

ــ انصت يا يحيى ، انصت . الا تسمع دقات قلبى . ان الفؤاد يخفق بحبك ، وشفتى ترتجفان ، وجسدى استعر نارا ، قبلة واحدة تطفىء اللهيب الذى اشعلته عيناك ..

وأشاح بوجهه عنها ، وهى تدنو منه وتقول :

ــ قبلنى يا يحيى .

ــ اخرجى يا سالومى .. اخرجى ..

ــ قبلة واحدة تطفىء النار التى تأججت فى صدرى .

ــ اغربى عن وجهى يا فاجرة .

وبقيت سالومى تتثنى وتتأود ، ويحيى ينفر منها ، وخرجت أخيرا مطأطئة الراس ، منقبضة الصدر ، دامية النفس ، تحس ذلة الانكسار ، وقد اندلعت النار فى احشائها . جاءت لترى النبى الذى تمقته أمها : فخرجت من عنده تحس طعم الصاب فى فيها ، فقد اشتهت النبى الجميل ، وحاولت أن تضع شفتيها على شفتيه ، ولكنه صدها أقسى صد ، وترك نار الصبابة ترعى فى الصدر ، وتضنى الفؤاد .

— ٦ —

كان اليوم عيدا من اعياد القوم ، فأقبل الى القصر الاشراف وكبار رجال الدولة والأعيان ، وانتظم عقدهم ، فجعـل الملك وهيروديا وضيوفهما يعبون الخمر ويضحكون ، وجلست سالومى ساهمة ، قد غاضت نضارتها ، فقد جرحت هزيمتها كبرياءها ، وجعلت ابخرة الحقد تنتشر فى صدرها فتخنقها .

وارتفعت ضوضاء المجتمعين ، وراحت ضحكاتهم المخمورة ترن فى جنبات القصر ، وبلغ يحيى فى سجنه ان المسيح قد ظهر ، وانه احيا الموتى ، وابرأ الاعمى والاصم والابرص ، فصاح :

— العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون .

ورن صوته فى القصر ، فصمت الجميع ، وقال احدهم :

— ما هذا ؟

فقال هيرودس :

— انه يحيى .

— ماذا يقول ؟

— لا ادرى .

فقالت هيروديا فى ضيق :

ـ انه يهرف .

وبلغ صـــوته آذان سالومى ، فزاد امتقاعها ، وسرعان ما عادت السرضاء ، وانطلق القوم فى مرحهم .

ولاحظ هيرودس انطواء سالومى على نفسها ، فقـدم اليها كاسا من الخمر فرفضتها ، فقال لها :

ـ اشربى .

ـ لا يا مولاى .

ـ اشربى وامرحى يا سالومى ، فاليوم عيد .

فافتر ثغرها عن ابتسامة باهتة ، فقال لها :

ـ ارقصى يا سالومى .

ـ لا اشعر برغبة فى الرقص يا مولاى .

ـ ارجو أن ترقصى .

ـ لا استطيع .. لا استطيع .

فقال لها فى اغراء :

ـ اذا رقصت لى اعطيتك ما تشائين ...

فخطرت لها فكرة . انها تستطيع أن تثأر من ذلك الذى جرعها كأس الهوان ، فرنت الى الملك وقالت :

ـ حقا ؟

ـ اقسم لك يا سالومى .

ـ بماذا تقسم ؟

ـ اقسم لك بآلهتى ما سألتنى شيئا الا اعطيتك .

ـ لقد اقسمت .

ـ أقسمت يا سالومى وما حنثت فى قسمى قط .

وغابت سالومى قليلا : وعادت فى غلالاتها السبع

وانسابت الأنغام العذبة ، فراحت ترقص وتغني في خفة الطيف . وأخذ الجميع يرمقونها في اعجاب ، وقد حبست الأنفاس . كانت ترقص في حرارة تتدفق في عروقها نار . وانبسطت الأسارير ، وفاض وجه الملك بالبشر ، وسالومي تميل ، فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت الى الملك ، وانحنت أمامه ، فقال لها في انشراح :

ـــ انهضي لأمنحك ما تطلبين ، لقد أدخلت يا سالومي على نفوسنا السرور . ماذا تريدين ؟

ـــ هدية في طست من فضة .

فظهرت الدهشة في وجه الملك ، وقال :

ـــ هدية في طست من فضة ، وما هذه ؟

ـــ رأس يحيى .

فاربد وجه الملك ، وتهلل وجه هيروديا ، وقالت :

ـــ أحسنت الاختيار يا فتاتي ، انها خير هدية في هـــذا العيد .

فقال الملك في جزع :

ـــ لا . لا يا سالومي . لا تسأليني ذلك .

ـــ أريد رأس يحيى في طست من فضة .

ـــ لا . . لا .

ـــ لقد أقسمت . أقسمت قسما عظيما .

ـــ أقسمت يا سالومي ، ولكن أتوسل اليك أن تسأليني شيئا آخر .

ـــ لا أريد الا رأس يحيى .

ـــ لا . . .

فقالت هروديا :

ـــ لقد اقسمت ، بر بقسمك .

ـــ اسكتى .

فقالت سالومى فى اصرار :

ـــ أرجو رأس يحيى .

ـــ ما هذا يا سالومى الذى تطلبين ؟ ان ما تطلبين مريع !

ـــ أعطنى رأس يحيى .

وحسبت هيروديا أن سالومى تطلب رأس يحيى اكراما لها . فقالت :

ـــ أعطها ما طلبت ، أعطها رأس من سب أمها ، ولطخها بالعار .

ونظرت الى ابنتها فى شكر ، وما دار بخلدها أن سالومى تطلب رأسه لتنتقم لما نالها من هوان ، لعل النار التى استثمرت فى جوفها تخمد ، ولعل القلب الذى كان ينزف حقدا يهدأ ، ولعلها تستطيع أن تلثم الفم البارد الذى عز عليها أن تلثمه وهو نابض بالحياة .

وانكمش هيرودس فى عرشه ، ونزل به هم ثقيل ، وقال لحراسه فى صوت خفيض :

ـــ اعطوها ما طلبت .

وخرج الحراس ، وساد القاعة صمت رهيب ، ومر الوقت بطيئا بطيئا ، وقد استولى على الجميع رهبة وقلق . ثم عاد الحراس يحملون طستا من فضة به رأس يحيى بن زكريا ، وقدموه لسالومى . فنظرت الى فمه وقد

اتسعت عيناها ، وادنت شفتيها لتلثم شفتيه ، ولكن الأرض زلزلت ، وانقضت صاعقة من السماء ، فسقطت سالومى صريعة ، وسقط الراس بعيدا ، فقد حرم عليها ان تلثم شفتيه حيا وميتا .

القصص الديني

(قصص من الكتب المقدسة)

نداء من السماء

— ١ —

سار « شطا » فى ردهات القصر شارد اللب ، مبلبل الفكر ، منقبض الصدر ، يمد بصره الى لا شيء ، وقد ارتسمت الحيرة فى وجه . وكان شابا تدل قسماته على الذكاء ورجاحة العقل ، انطلق دون أن يفطن الى الخدم الذين كانوا ينحنون له تحية واكراما اذا ما اقبل أو ادبر ، ودون أن تجذب بصره تلك التماثيل الرائعة الفخمة ، التي كانت تزين ردهات القصر العظيم ، فقد كان واجما منطويا على نفسه ، انه يحس اضطرابا وقلقا ، فقد كره عيشته ، وعافت نفسه كل شيء ، ودلف الى غرفة كانت من أحب غرف القصر الى قلبه ، ولطالما اجتمع فيها بعلماء المدينة ، وطالما أصغى اليهم فى نشوة ، وطالما أخذ وإياهم بأطراف أحاديث لذيذة كانت تنعش روحه ، وتعيد اليه هدوءه .

ألفى العلماء مجتمعين يريدون النقاش بينهم ، فجلس كما اعتاد أن يجلس ، وأعارهم سمعه ، وما انقضى قليل وقته حتى شرد فكره ، وعاد اليه وجومه وحزنه ، وسرعان ما فطن الى شرود ذهنه ، فراح يجمع شتات أفكاره ، ويحاول أن يلقى السمع اليهم ، وأن يتتبع حديثهم فى

شغف ، ولكن ما مرت لحظات حتى احس ضيقا وانقباضا ، فنهض متبرما وانصرف ساهما مفكرا كما اقبل ساهما مفكرا .

وأغلق عليه بابه ، وراح يفكر في نفسه وفيما حوله ، وأرخى لخياله عنانه ، فالفى نفسه سجين القيود ، وما ابغض القيود الى النفس ، فما تخلف الا القلق والحيرة والفزع والخوف والأحزان ، انه يود ان يكون طليقا من كل قيد . فلم لا يهجر القصر ، وينبذ المال ، ويدع السلطان ، ليعيش وحيدا بعيدا طليقا ، ينعم بالراحة وهدوء البال ؟!

واقبل البامرك تحف به بطانته ، وسأل عن ابنه ، فقيل له انه فى جناحه وقد اغلقه عليه ، فأطرق البامرك ، وطافت به سحائب من حزن . فان ابنه قد ركن الى الوحدة ، واصبح يغلق عليه بابه ، لينفرد بنفسه يحادثها وتحادثه . ان نفور شطا واعتزاله اصبح يقلقه ، وان وجومه صار يحزنه ، فلو ان ابنه كان كلداته من الشباب يسر بلذات الجسد لهان الأمر ، ولبعث اليه بالجوارى الفاتنات ، وبالسرارى اللاتى يأخذن باللب ، ويشغلن القلب ، ولكن ابنه أعرض من كل شيء . وجعل البامرك يعجب فى نفسه لوجوم ابنه ، واغراقه فى التفكير ، فما كان لمثله أن يكتئب أو يفكر ، فالدنيا لهم باسمة ، بسطة فى العيش ، ومال موفور ، وخدم وحشم ، وسؤدد وسلطان ، انه ابن حاكم دمياط ، وابن خال حاكم مصر المقوقس العظيم !

وسار البامرك حتى اذا ما بلغ باب ابنه طرقه فى رفق ، ففتح شطا الباب ، فلما رأى اباه ابتسم ابتسامة ، كانت أقسى على قلب الأب من الدموع ، فزادت من آلامه ، فقد

كانت ابتسامة ساهم واجم ، لا تعرف نفسه الراحة او الهدوء . واقترب البامرك من ابنه ، ولف ذراعه حوله ، ورنا اليه رنوة كلها عطف ، وكلها حنان ، وقال له في صوت متهدج :

— ما بك يا بني ؟

— لا شيء .

— فما بالك تفر من الناس وتغلق عليك بابك ؟

— ضقت ذرعا بالناس وتفاهاتهم .

— اخرج الى القصر يا بني واختلط بمن فيه تذهب عنك وحشتك ، ويعود اليك هدوءك .

— سئمت القصر ومن فيه .

— أخرج الى الصيد وروح من نفسك تجد لذة وشغفا وسعادة .

— هيهات ! ما لي في اللهو من ارب .

— وما تريد ؟

— أن تأذن لي بأن ابني صومعة انفرد فيها .

— تبني صومعة لتتركنا ! ؟

— ان روحي تهفو الى شيء ونفسي تتشوف له ، ولكني ادري ما هو ، وكل ما أدريه أنه ليس هنا في القصر ، فدعني احيا حياتي .

— شططا ، ولدي .

— دعني يا أبت أذهب ، دعني ان روحي تعذبني .. تضنيني .

فضمه البامرك الى صدره في وله وحنان ، وقال له في توسل :

— لا يا شطا ، لن ادعك أبدا ابدا ، انى لا أطيق فراقك .

— انى أحس أن روحى هنا حبيسة ، ولن تهدأ حتى تهيم طليقة ، لتتصل بالكون .

— ابق من اجلى يا شطا . اما كفانى اليوم أن أعلم ان العاصمة قد سقطت فى ايدى العرب المغيرين ، حتى تأتى أنت لتزيد فى كربتى ؟ !

فخفض شطا بصره ، ولم ينبس بكلمة ، ونهض البامرك وجذب ابنه من يده ، ليخرج به الى القصر .

— ٢ —

انتشرت الجيوش الاسلامية فى ربوع مصر تضع يدها على مدينة اثر مدينة ، بين فرح الاهلين واغتباطهم ، فقد كانوا قوما عدلا ، وما كانوا بفاسقين . واخذ الناس يتناقلون القصص العجيبة عن الغزاة الفاتحين ، وانتشرت انباؤهم حتى بلغت دمياط ، فجعل شطا ينصت الى ما روى عنهم فى اهتمام وانتباه ، ويستفسر عن ذلك الدين الجديد الذى جاءوا به لينشروه على العالمين . انهم قوم متواضعون رحماء لا يريدون عرض الدنيا وزخرفها ، ولكنهم يبغون وجه الله . انهم على تواضعهم اصحاب مثل عليا يخوضون المهالك لتحقيقها ، ويجودون بأرواحهم راضين مطمئنين فى سبيلها . انهم يحبون الموت حبهم للحياة .

وأخذ شطا يتقصى أخبارهم فى شغف ، ويفكر فيهم ، وفيما جاءوا به ، فلا يزداد الا عجبا واعجابا . وفى يوم وفد

الى القصر رجل من رجال المقوقس الذى فروا بعد سقوط حصن بابليون ، فهرع شطا اليه ، ليستمع الى انباء اولئك الذين أصبحوا شغله الشاغل ، وراح الرجل يقص نباهم ، فما كان لمصر حديث غيرهم ، وشطا يستمع فى رضا . قال الرجل فيما قال :

ـــ انهم فى الليل رهبان ، وفى النهار فرسان ، اذا رايتهم فى سكون الليل يدعون ربهم ، ويصلون صلاتهم ، حسبتهم ملائكة ابرارا ، واذا رأيتهم فى النهار فى حلبة القتال يطلبون الموت ميفر منهم ، حسبتهم شياطين مردة .

وزحفت جيوش المسلمين تطلب دمياط ، فحصن البامرك البلد ، وجمع الجيوش ، وتاهب للقاء ، واجتمع بارباب دولته ، وكان عندهم حكيم يثقون به وبرايه ، فارسل البامرك فى طلبه ، فلما جاء قال له :

ـــ ايها الحكيم العالم ، ما الذى تشير به علينا فى أمر هؤلاء العرب ؟

ـــ أيها الأمير ، ان هؤلاء القوم لا تذل لهم راية ، ولا تلحق لهم غاية ، وقد فتحوا البلاد ، واذلوا العباد ، واشتهر امرهم ، وعلا ذكرهم ، وفشا خبرهم ، وعلت كلمتهم ، وطاقت بالأرض دعوتهم ، فما أحد يقدر عليهم ، وما نحن بأشد من جيوش الشام ولا أمنع بلدا ، وهؤلاء القوم أيدوا بالنصر ، وان الرحمة فى قلوبهم ، فساعدهم ، فما عاهدوا عهدا فخانوا ، ولا حلفوا يمينا فكذبوا ، وقد بلغك ما هم عليه من الدين والصيانة والصدق والأمانة ، والراى عندى ان تصالحهم لتنال بذلك الأمن ، وحقن الدماء ، وصون الحريم ، ودفع الأمر العظيم .

فثارت ثائرة البامرك ، فان الحكيم ليبث روح الهزيمة فى القوم ، فاستل سيفه ، وقطع به راسه ، وصاح فى القوم أن يتاهبوا للحرب .

وجاء الليل يمد ارديته السود ، وانسل شطا الى معسكر المسلمين ينظر ، فراى الاعراب فى ثيابهم البيض يرتلون القرآن ترتيلا ، ويبتهلون الى الله فى خشوع ؛ واستمر يرقب ما يجرى فى المعسكر فالفى بساطة رائعة تأخذ بمجامع القلوب ، فتفتحت نفسه ، وغشيته طمأنينة وهدوء ، وعاد شطا الى معسكره متسللا تراوده افكار وأحلام .

وطلع الصباح فخرج المصريون للقتال ، وكان البامرك على راس جيشه ، وعن يمينه شطا يرقب الأعراب كالمشدوه ، واضطربت نفسه ، وخفق قلبه فى صدره ، وشخص الى السماء ببصره فراى كأنما نور عظيم يسقط على عسكر المسلمين ، فصاح وسقط عن فرسه ، فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة ، فلما افاق قال له أبوه فى اضطراب :

ـــ ما وراءك يا بنى ؟

فقال شطا فى يقين :

ـــ ظهر والله الحق .

وحرك جواده وقال :

ـــ أشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

والتفت الى الرجال وقال :

ـــ من أحبنى من رجالى وغلمانى فليتبعنى

وانطلق الى صفوف المسلمين وقد القى سلاحه ، وإذا

بألسف من المصريين يتبعسونه ، ويلحقسون بسه ، ويلقسون بأسلحتهم .

وتطلع البامرك الى ابنه ورجاله فى ذهول ، ومضت مدة قبل أن يفيق الى نفسه ، ولما استرد لبه الذاهل بعد تلك المفاجاة المباغتة قال :

ـــ والله ما فعل ولدى شطا ذلك الا وقد راى الحق .

وحرك جواده ، وسار الى صفوف المسلمين ، فلما نظر ارباب دولته ذلك قالوا :

ـــ اذا كان الامير وولده قد اسلما ، فما وقوفنا !

وانتشر الاسلام فى دمياط دون أن تراق قطرة دم .

ـ ٣ ـ

فتحت دمياط ، واعتنق البامرك الاسلام وتعصب له ، وشاء ان يعمل على نشره ، فالتفت الى شطا وقال :

ـــ هذه تنيس بالقرب منا ، وهى جزيرة ، ولا يمكن التوصل اليها الا فى المراكب ، والصواب أننا نكاتب صاحبها أبا ثوب ، وندعوه الى الله ، والى دين نبيه ، فان اجاب ، والا قصدناه والله ينصرنا .

فقال شطا :

ـــ هذا هو الراى ، وانا اكون الرسول اليه بنفسى .

فقال البامرك :

ـــ اعزم يا بنى على بركة الله وعونه .

وجهسزت المسراكب وركبه شسطا واربعسة من غلمسانه

الخــواص ، فلما نظر ذلك يزيد بن عامر صــاحب رسول الله قال :

ـــ وانا أسير معك الى صــاحب تنيس ، فانه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يجد عندك ما يشفى غلته ، ونحن بحمد الله ما فينا من يتكبر ولا يتجبر ، وما طلبتنا الا الآخرة ، والعمل بما يقربنا الى الله .

واقلع المركب بشــطا ويزيد حتى اذا ما اقترب من الجزيرة أسرع الحرس اليهما ، فلما رأوا فيها بدويا أظهــروا عجبهم ، وسألوا شطا :

ـــ من أنت ؟

ـــ انا ابن البامرك صاحب دمياط ، ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله ، وقد جئناكم رسلا .

فارسلوا واحدا منهم يستأذن لهم ، فأذن لهم أبو ثوب ، فنزلوا فى الزورق ، ولما بلغوا اليابســة وجــدوا أبا ثوب قد أرسل لهم دواب ليركبــوها ، فامتنــع يزيد من الركوب ، ووافقه شطا على ذلك ، وساروا كلهم راجلين الى أبى ثوب .

وبلغــوا القصر ، فاخــترقوا مماره حتى دخلوا على أبى ثوب ، واذا به فى حشمه وخدمه وزينته ، والحجاب والغلمان بين يديه ، فلما رآهم مقبلين نظر اليهم شزرا ، ثم أعرض عنهم فى عجرفة وكبرياء ، ولم يأذن لهم بالجلوس ، فلم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم ، فلما رأى يزيد بن عامر ذلك لم يغضب ولم يثر ، بل قرأ فى هدوء : (ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) .

وجلس ، فجلس شطا الى جواره ، وراح يزيد يعــرض

على أبى ثوب فى ثقة : الاسلام أو الجزية أو القتال ، فغضب أبو ثوب ، ولكنه كظم غيظه ، وأخذ بأطراف الحـديث مـع يزيد ، واستمر الاخذ والرد ، والجـذب والشد ، واخـيرا انصرف يزيد هو ومن معه الى دمياط ، وقابلوا البامرك ، فسألهم عما فعلوا ، فقال يزيد :

ـــ قال أبو ثوب انه سوف يعرض دين الاسلام على أهل جزيرته وأصحابه وأهله ، ويبنى المساجد ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فقلت له : ان أنت فعلت ذلك رشدت ، وان نافقت فان ربك لبالمرصاد .

فأطرق البامرك قليلا ثم غمغم :

ـــ والله لقد خدعكم بخديعته ، ورماكم بسهم مكيدته .

فقال يزيد :

ـــ (ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين) .

وانقضت أيام ، ووصل الى علم المسلمين أن أبا ثوب جمع جندا من سائر الجزائر وأنه قادم عليهم ، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد :

ـــ ما الذى ترى من الراى فى أمر هذا العدو ؟

ـــ نستعين بالله ، ونتوكل على الله ، ومن قاتلنا قاتلناه .

وارسل البامرك شطا الى البرلس ودميرة وطناح يجمع الرجال ، فانطلق شطا يجند الجيوش ، فجاءوا من كل صوب ، وطلب يزيد من عمرو بن العاص مددا .

نفر الى أبى ثوب العساكر ، فأخرجهم بظاهر تنيس ، وعداهم فى المراكب ، واتوا نحو دمياط ، فالفوا جيش البامرك على أهبة القتال ، فوقف الجيشان وجها لوجه ،

وبرز شطا للنزال ، فقتل رجالا ، وجـدل ابطالا ، ونشعبت المعركة ، واستمرت رهيبة حتى خيم الظلام ، فتحاجـز الجيشان ، وراح شطا يصـلى لله ، ويدعـوه فى حـرارة وابتهـال حتى مضى اكثر الليل فاضـطجع ، فلما كان وقت الغلس ، وقرب الصبح وتنفس ، استيقظ شطا وهو باكى العين ، فقال له أبوه :

ـــ يا بنى ، ما الذى أبكاك ؟

ـــ انى لك مفارق .

فبان القلق فى وجه البامرك ، وقال :

ـــ اعوذ بالله يا بنى ، ما هذا الكلام ؟

ـــ رأيت شيئا فى منامى .

ـــ لعله اضغاث احلام .

ـــ لا والله ما هى اضغاث احلام . انى رأيت فى منـامى كان ابواب السماء قد فتحت ، واضـواء قد سطعت ولمعت ، ثم رأيت ملائكة سـجودا على جبـاههم لا يقومون ، وركعـا لا ينتصبون ، وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون ، باكين لا تجف لهم دموع ، ثم رأيت قبـة من زمـرد أخضر ، وفيها قناديل من الجوهر ، وهى تشع بالأنوار ، وتوقد من غير نار ، وفيها اربعون حوراء ، عليهن حلل ما رأيت قط مثلها ، ولا ابصرت شكلها ، بوجوه مشرقة باسمة ، تفتن من رآها . فصاحت بى احداهن ، وقالت : يا مفتونا بدار الدنيا ، اما آن لك ان تذكرنا ! ان مهرنا منك الجهاد .

وصمت شطا ، وشخص ببصره الى السماء كأنما يتطلع الى شىء ، وقال البامرك :

ــ اعلم يا ولدى أن المنام قد يصدق وقد يكذب ، فلا تشغل نفسك بما رأيت .

ــ لا والله يا أبت ، ما بقى لى فى الدنيا طمع .

وصلى شطا فى اطمئنان ، وما طلع الصبح ولاح ، حتى تأهب للخروج الى الحرب ، فتمسلق به ابوه دامع العين ، وقال له :

ــ يا بنى ، بحقى عليك لا تبلنى بفراقك .

ــ دع عنك العتاب .

فضم البامرك ابنه اليه فى وله وقد سحت العيون ، وخفقت القلوب فى الصدور ، انه الفراق ، وهمس البامرك فى أذن ابنه فى صوت مخنوق بالبكاء :

ــ يا بنى ، ان صح منامك فاذكرنا عند ربك .

وبرز شطا للقتال كليث فى أكمة ، ودعا للبراز ، فخرج اليه واحد فقتله ، وثان وثالث حتى قتل اثنى عشر فارسا ، فلما رأى ابو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطق صبرا ، فخرج اليه بنفسه ، وكان فارسا صنديدا ، ودار القتال بينهما رهيبا ، لا هوادة فيه ولا رحمة ، واستمر نصف نهار ، فعطش شطا ، ولاح له فى السماء القبة التى رآها فى المنام ، والحوراء التى قالت له : يا مفتونا بدار الدنيا ، أن آن لك أن تذكرنا ، وفى يدها كأس ، وكأنما سمعها تهتف به :

ــ يا شطا هذا شراب من شربه منه لا يسقم ولا يفيق .

فتوقف عن القتال ، ورفع بصره الى السماء كالمشدوه ،

فعاجله ابو ثوب بطعنة فى صدره ، فأطلع السنان من ظهره ، فخر صريعا .

رأى البامرك مقتل ابنه ، فأحس نارا تشوى كبده ، وحمل على الاعداء حملة منكرة ، تبعه رجاله واقبل مدد عمرو بن العاص ، فانهزم جيش الأعداء ، وأخذ ابو ثوب أسيرا وأتى البامرك شطا فاذا به يبتسم ويتطلع الى السماء ، فطأطأ البامرك رأسه ودمعه ينهمر ..

هـاروت و مـاروت

— ١ —

اجتمعت ملائكة فى السماء تتهامس ، فطفقوا يتذاكرون ما وقع قبل ان يخلق الله آدم .

قال الله للملائكة :

— انى جاعل فى الارض خليفة .

فقالت الملائكة :

— أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

قال لهم :

— انى أعلم ما لا تعلمون .

وها هى أعمال البشر تصعد الى السماء دكناء ممعنة فى الدكنة ، خبيثة كل الخبث ، محملة بالآثام والأوزار ، فقد ساد بين الناس اهراق الدماء والظلم والفسق والكذب والرياء ، وها هم خلفاء الله فى أرضه قد اشركوا بربهم ، فجعلوا يعبدون اصناما وأوثانا ، يمضون نهارهم فى لغو ولعب ، ويقضون ليلهم فى لهو وعبث ، يقبلون على الشهوات اقبالا ، ويلغون من الدنايا ولوغا ، كأنما يتنافسون فى المعاصى ويتسابقون فى الخطايا .

وظل الملائكة يسخرون واغرقوا فى السـخرية ، وراحوا يعيرون بنى آدم بذنوبهم ، ينكرون عليهم فعالهم ، حتى قالوا :

ـ هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهـم فهم يعصونك !

فقال تعالى :

ـ لو انزلتكم الى الارض وركبت فيكم ما ركبت فيهم ، لفعلتم مثل ما فعلوا .

فقالوا فى انكار :

ـ سبحانك ربنا ما كان ينبغى أن نعصيك .

ـ اختاروا ملكين من خياركم .

فاختاروا هاروت وماروت وكانا أورعهـم وأكثرهم تقى .

ـ ٢ ـ

ابواق موسـيقية تنبعث منهـا أنغـام شـجية ، وقهقهات عالية مخمورة ، وضحكات نسوية ناعمة مثـيرة ، وشـابات رائعات الحسن يبرزن فتنتهن ، فالشعر الأصـفر الأخـاذ ، والشعر الكستنائى الجـذاب ، والشـعر الأسـود المسـبل الطويل يتهدل على الأكتاف العـارية العاجية ، يبرز محاسن الوجوه الحـلوة التى زانتها عيون اذا نظـرت سـلبت ، واذا أسبلت سحرت ، عيون تبعـث سهامها الى القـلوب ، ثم تتكسر فى وهن يزيد النار التى تضطرم بين القلوب ضراما ، واناس يغدون ويروحون يتقـدمون خطـوة ثم يتلفتون لفتـة أو يقفون لحظة ، فهم فى بابل مدينة الترف واللهو والجمال .

وانطلق فى طرقات المدينة الصاخبة شابان جميلان تنطلق قسمات وجهيهما بالرجولة والفتوة ، وتشع عيونهما اشعاعات البراءة والطهر ، سارا مرفوعى الرأس ، واخذت الأنغام الموسيقية تداعب آذانهما ، والأجساد النسوية اللينة المتثنية تمر أمام عيونهما ، فلا يحفلان بالموسيقى المشجية . ولا بالأجسام المشدوقة المغرية . كان جمالهما يأسر الأفئدة ويأخذ بالألباب ، فلو أنهما انطلقا فى مدينة أخرى لكانا فتنة ، ولكنهما كانا فى بابل ، مدينة الفتنة والجمال والخمر والنساء .

انطلقا يعلوهما مهابة ووقار ، وظلا فى انطلاقهما يضربان فى الطرقات على غير هدى . فأخذ نشاطهما يفتر ، وتفصد العرق ، وبدا عليهما اعياء ، فالتفت احدهما الى الآخر وقال :

— انى اشعر بضيق فى صدرى وارتخاء فى جسمى ودوار فى رأسى .

فقال الآخر :

— احس وهنا فى ساقى ، واشعر كأنى سأنهار .

وكانا قد بلغا مكانا يكسوه العشب الأخضر الندى ، وقامت فيه أشجار كانت تنشر ظلها ، هنا وهنالك ، فارتميا فى ظل شجرة ، وتمددا فى تراخ ، وجعلا يملآن صدريهما بالهواء فأحسا بعض الراحة ، ولكن استمر الوهن يسرى فيهما ، فقال احدهما وقد وضع يده على بطنه :

— أحس ألما ها هنا .

— انه الجوع .

— أتكابد ما أكابد ؟

فهز الآخر راسه وقد شخص بصره الى السماء ، وعبق المكان برائحة شواء ، وملأت خياشيمهما ، فهبا من رقدتهما ، واجالا الطرف حولهما ، فلمحا أناسا قد جلسوا يشوون صيدا على قيد خطوات ، فهما بأن يهرعا اليهم ، ولكن زجرهما زاجر من نفسيهما ، انه الكبرياء ، فلبثا قليلا فى مكانهما ، وراح الجوع يعضهما ، ورائحة الشواء تداعبهما فتضنيهما ، فدحرت الكبرياء ، فتقدما على استحياء حتى وقفا بالقرب من القوم ينظران ، واحس الناس وقوفهما ، فدعوهما الى الطعام .

جلسا يأكلان حتى اذا امتلآ تطلعا الى القوم ، فرأيا رجالا ونساء ، وكان بين النساء امرأة باهرة الجمال ، حسنها قاهر ، كانت عيناها فى زرقة السماء ، وكانتا ساخنتين سخونة الشمس ، فما ينبعث شعاعهما الى انسان حتى يسرى فى بدنه دفء ، وكانت بشرتها ناصعة البياض ، انصع من سحابة . وكان شعرها كجدول من الذهب الرقراق ، اما الصدر فقد كان الفتنة والاغراء ، فراحا يختلسان النظر اليها ، فيخفق القلب ، ويتوه الفكر ، ثم يثوبان الى نفسيهما ، فيغضان الطرف فى ندم وحياء ، فيهب وسواسهما يوسوس لهما أن يمتعا العين بالجمال الفتان ، فيرفعان بصرهما اليها وقد تألقت العيون ببريق الرغبة ، ثم زجرهما زاجر من جوفهما ، فيشعران بشيء من الندم والخجل ، ولكن سرعان ما يذوب الخجل ، ويتبخر الندم ، فيتطلعان ثانية فى وله واشتهاء .

والتقت العيون اكثر من مرة ، فخفقت القلوب فى الصدور ، وثارت الدماء فى العروق ، واعترى الشابين تبدل

وارتباك ، وخشيا أن يفطن الناس الى ما اعتراهما من تغير ، أو يبلغ مسامع القلوب خفقان القلوب ، فاستأذنا شاكرين ، ونهضا وقد اسبلا عيونهما ، حتى لا تقع على الفتنة الجالسة أمامهما ، وما ان ابتعدا خطوات حتى أحسا قوة عاتية خفية ترغمهما على التلفت ، فالتفتا الى المرأة التى أشرق وجهها بابتسامة جذابة تسبى المعقول ، فهفت نفساهما اليها ، ولو اطاعا قلبيهما لعادا ليتزودا من الحسن والجمال ، ولكنهما كبتا عواطفهما ، وانطلقا وفى القلب لوعة ، وفى الصدر نار .

ساراً صامتين ، وظلا ساهمين ، لا ينطق أحدهما بكلمة ، فقد كان كل منهما يفكر فى ذلك الصراع الذى ينشب فى جوفه فى كل لحظة وفى كل آن ، والتفت أحدهما الى الآخر ، وقال فى جزع :

ــ ركبت فى نفس خبيثة تدفعنى دفعا الى ما تشتهيه ثم تنهانى بعد وقوع المحظور ، وتنهال على باللوم والتقريع ، فما أخبث هذه النفس !

ــ انها نفس من نفوس البشر .

ــ اتحس ما أحس ؟

ــ أحسه وأقاسى منه .

ــ أخشى يا هاروت أن تذلنى هذه النفس .

ــ لا تخش شيئا ، سنكبح جماحها ، وسندحرها وسنخلصها من ذلك الخبث .

فقال هاروت فى حرارة :

ــ سندحرها ما فى ذلك شك .

— ٣ —

وبلغ هاروت وماروت مسكانا هادئا بعيــدا عن المدينــة الصاخبة الماجنة ، كان كل ما فيه ينطق بعظمــة الخــالق ، فأجالا بصرهما ماخوذين ، فأنزل الفضاء اللانهائى الواســـع المريض بقلبيهما الخشـــوع ، وحلت رقعــة السماء الصافية الزرقاء التى زينها قرص الشمس عقــدة لسانيهما ، فسـبحا لله فى حرارة ، وصــفر الريح صــفيرا خافتا ، فكان فى آذانهما كأهازيج السماء ، واستنامت احساساتهما الفوارة ، وشاع فيها طمأنينة وأمن ، وصفت نفساهما ، ورقت مشاعرهما ، وهامت روحاهما سابحتين فى الكون ، فقد كانا فى هذه اللحظة أقرب لأهل السماء منهما لأهل الأرض .

وراحت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، وأخذ توهجها يخفت ، وخبا بصرها حتى صارت قرصــا من عقيق أحمر ، وجعلت تغوص فى الأفق البعيد وقد تغير لونها ، وعلتهــا صفرة الاحتضار ، وتأهب الكون للنوم ، ولكن هاروت وماروت كانا فى صلاتهما غارقين ، وظلا فى تسبيحهما حتى نشر الظلام جناحيه ، فحجب كل شىء ، وهبت الرياح فى قوة ، فجعلت تصفر فى شدة ، وتزمجر فى حدة ، فصار صــوتها أشبه بصــوت العويل ، فأحسا شــعورا غريبا ، أحسا وحشــة تسرى فى صدريهما ، ورهبة تستولى على مشاعرهما ، فلم يحتملا البقاء فى ذلك المكان الهاجع ، فقد كان سكونه يخلع القلوب ، فنهضا

لينصرفا الى المدينة الصاخبة ، لعل الطمأنينة تنزل بالقلب الواجف ، وما ان ابتعدا عن المكان قليلا حتى سكن روعهما ، وهدأت نفساهما ، فعجبا من تلك المشاعر المتضاربة السريعة التقلب فى صدر الانسان !

وراحا يضربان فى الظلام ، واستمرا فى سيرهما حتى عاودهما احساس سبق أن شعرا به ، فقال هاروت :

— احس جوعا .

فقال ماروت فى اسى :

— يا ويلتنا ، صرنا عبيد هذا البطن .

— وما العمل ؟

— ننطلق الى المدينة نبحث عن طعام .

— انعيش عيالا على الناس ؟

— وما نعمل ؟

— نمارس عملا مما يمارسونه .

— اى عمل ؟

— والله لاادرى ؟

وأطرق هاروت يفكر ، فبان فى وجهه الاهتمام ، فقال له ماروت :

— فلندع مقاليدنا لله .

ودخلا المدينة وجابا خلالها ، وقد نال منهما الجهد والجوع ، فأتيا اناسا يترنحون من السكر ، فرمقاهم شزرا ، ولاح فى نظراتهما الاحتقار الشديد ، ولمحا جموعا تنطلق الى دار فاخرة فذهبا معهم ، واجتازا بعض ممار طويلة هائلة ، كل ما فيها ينطق بالغنى ، فوجدا نفسيهما فى قاعة فسيحة هائلة ، قد مدت فيها موائد عامرة

بالأطعمة الشهية ، والفواكه المنوعة ، فأجالا بصرهما فى المكان ، فرأيا سيدا يرتدى ثيابا مزركشة فاخرة ، يلوح عليه الهيبة والسلطان ، قد جلس عند رأس مائدة كبيرة ، واصطف حول الموائد رجال يلوح عليهم الثراء ، فظهر على هاروت وماروت الارتباك ، فأطرقا حياء وهما بالانسحاب ، ولكن السيد لمحهما ، وحزر ما يعانيانه ، فأشار اليهما ، ودعاهما الى الجلوس .

جلسا يتناولان طعامهما فى صمت ، وقدمت اليهما الخمور ، فاعتذرا ، فرمقهما فى دهش ، ولكن سرعان ما عاد القوم الى احاديثهم ، فأسدل ستار على ذينك اللذين ترفعا عن احتساء ما قدم اليهما من شراب .

وفطن هاروت ومارت الى ان السيد الجالس عند راس المائدة الكبيرة ، هو حاكم المدينة ، وصاحب الصولة والسلطان ، وأن الآخرين خواصه وندماؤه ومستشاروه . وتحدث الحاكم فأعاره الجميع سمعهم ، وتعلقت عيونهم به ، فراح يبسط نزاعا نشب بينه وبين أحد الموجودين ، وما ان انتهى من قوله ، حتى تأهب الجميع ليحكموا لصالح السلطان ، وما كان الحق فى جانبه ، ولكنهم اعتادوا ان يحكموا لصالح الأقوى ، ولكن الحاكم رنا الى هاروت وماروت وقال :

— أحب ان يحكم ضيفانا فى هذه القضية ، فشخصت اليهما الأبصار . كان القوم على يقين من انهما سيحكمان لصالح رب الدار ، فهما فى بيته ، وعلى مائدته يطعمان ، ولكن هاروت وماروت وان ركبت فيهما غرائز البشر ، الا انهما لم يتلقنا بعد النفاق والرياء ، فحكما بالحق ، وأدانا الحاكم المهيب رب الدار ،

فسرت همهمة وغمغمة ، وبان فى الوجوه العجب ، ثم انبعثت صيحات انكار ، وتطلع القوم الى الحاكم ، وترقبوا فى لهفة ما ينطق به ، وقال الحاكم في هدوء :

ـ قد وليتكما القضاء .

ـ ٤ ـ

خصص لهاروت وماروت جناح فى القصر العظيم ، فدلفا اليه مغتبطين ، فقد صار لهما عمل يعملانه ، ولن يكونا بعد الليلة عيالا على الناس ، وطفقا يصليان لله ، ولكنهما لم يحسا صفاء النفس الذى كانا يشعران به لما صليا أول مرة . كان فكرهما يشرد ، فقد كانا يعرضان فى صلاتهما ما مر عليهما من أحداث ، وكان الزهو والغرور والخيلاء تزحف لتحتل الصدر النقى لتعكر صفاءه ، وتلوث نقاءه .

ودب التعب فيهما فاضطجعا ، وأحس ماروت بعينيه تسبلان برغمه ، ويسرى فى بدنه خدر ، ففتح عينيه فى فزع ، واستمسك قليلا ، ولكن سرعان ما انطبق جفناه ثانية ، فهب مرعوبا وقال فى رهبة :

ـ أكتب علينا الموت يا هاروت ؟

ـ لماذا ؟

ـ أحس قوة ترغمنى على اطباق عينى ، وأحس عدم قدرة على السيطرة على حواسى ..

ـ أشعر بما تشعر به .

ـــ ما ابشـع الموت . انفنى ؟

ـــ لا أظن .

وتثاءب ماروت وهوم فى جلسته ، ثم رقد وهو يتكلم فى نعاس ، أخذ صوته يخفت ، حتى صمت راح فى النوم ، فرمقه هاروت فى عجب ، فألفاه يتنفس فى هدوء وقد أسبل عينيه ، فاطمأن بعض الشىء وغمغم :

ـــ لعله شعور جديد لا ندريه .

واسلم جفنيه للرقاد ، فراح فى سبات .

وتنفس الصبح ، فنظر هاروت الى رفيقه ، فألفى وجهه قد اشرق ودبت فيه الحياة ، فغمغم :

ـــ ما الذ الرقاد بعد التعب والجهد !

فقال ماروت وهو يملأ صدره بالهواء :

ـــ احس كأنى خلقت من جديد .

وجلسا للناس يفصلان فى قضـــاياهم ، فرضى الناس ، وترادفت الأيام وكرت ، وتقضت هادئة لينة لا ينغصها شىء . فقد كانا اذا ما انتهيا من عملهما يعتكفان فى جناحهما ، يسبحان بحمد الله ويقدسـان له ، ودعاهما الحاكم الى ولائمه مرات ، فكانا يشاركانه فى الطعام ، أما اللهو والشراب فقد كانا يعرضان عنهما ، برغم أنهما يهفوان اليهما .

وفى يوم أقبلت الزهرة تعرض عليهمـــا قضـــيتها ، فما أن اهسلت بطلعتها حتى خفق القلب ، وما أن التقت عيـــونهما بعينيها الزرقاوين ، حتى تدفـــق الدم حـــارا الى رأســـيهما . انهما ليذكران ذلك الحسن الرائع ، وهاتين العينين الساخنتين الصـــافيتين . وأســـبلا عيـــونهما ، ونظـــرا مـــن خـــلل

أهـدابهما الى الشـعر الذهبى ، والجيـد العاجى ، والفتنة المشرقة ، فأحسا رعدة تسرى فى بدنيهما ، وعجب كل منهما فى نفسه لذلك التبدل الطارىء ، فقد أرهفت حواسه وشعر بروحه تهفو اليها .

انهما قابلاها مرة واحدة قبل اليوم ، كان ذلك يوم هبطـا الى الأرض ، وهذه هى المرة الثانية ، فما بالهما يتلهفان اليها ، وما بال القلب يخفق كل ذلك الخفقان ؟ !

وحسب كل منهما أنه وحده يعانى ما يعانى ، ويحس ما يحس ، فرنا كل منهما الى صاحبه ، ليستشف ما يخفى فى صدره ؛ فما التقت العيون حتى ايقن كل منهما أن صاحبه يكابد ما يكابد ، وانه مسرح لاحساسات جبارة عاتية .

وأخذت الزهـرة تقص قصتها فى نبرات حلوة ، كانت تدغدغ آذانهـما ، فتمنيـا أن تسـترسل فى الـكلام ، وجعل كل منهما يحـاول أن يغض بصره ، ولكن قوة طاغية ترغمـه على النظر .

واتمت الزهرة قصـتها وهاروت وماروت يعسانيان ضغط الاحساسات التى ضاق بها الصدر ، وابتسمت ابتسامة زادت لهيب القلب ، وقالت فى دلال :

ـــ هذه قضـيتى عرضتهـا عليكما ، وفى انتظار حكمكما العادل .

فرفع ماروت رأسه وقال فى صوت متهدج :

ـــ هذه قضية تحتاج الى درس ، فالى الغد ...

فقال هاروت فى انشراح :

ـــ هذا هو القول .

وقامت الزهرة ورمقتهما بنظرة هزت كيانهما ، وانسلت كما ينسل الطيف ، وبقي هاروت وماروت في صمتهما ، واخــذت الاحساسات تتبخر ، حتى اذا انمحت وصفت النفس ، رفــع هاروت راسه وقال في عتاب :

ـــ لماذا اجلت هذه القضية الى الغد ؟

ـــ والله لا دري . نطق لساني دون ن يوجهه فكري .

ـــ اخشى يا ماروت أن تقهرنا هذه النفس .

ـــ دع هذه الوساوس ، هذه تجربة بسيطة واختبار يسير سنجتازه في يسر .

فسمع هاروت صوتا ينبعث من جوفه كانما يأتي من مكان سحيق يهمس في ذنه : يا ليت !

— ٥ —

وتنفس الصبح وجلسا للناس وقد ارتسم في وجهيهما قلق ووجوم ، ولبثا صامتين ، ثم قال ماروت :

ـــ ما بك ؟

ـــ اني مهموم .

ـــ لماذا ؟

ـــ رأيت رؤيا أفزعتني .

فقال ماروت في صوت خفيض :

ـــ رأيت الزهرة ولا ريب .

ـــ وكيف عرفت ؟

ـــ رأيت ما رأيت .

ـــ يا ويلتنا ، هلكنا .

ـــ هلكنا . هذه الرؤيا نذير السماء .

ـــ لا تقنط ، ولنعمل جاهدين على ألا يحدث فى اليقظة ما قد جرى فى المنام .

ـــ حاشا لله ما كنا فاسقين .

ـــ وما ينبغى أن نكون ..

ـــ وعلام عولت ؟

ـــ اذا أقبلت هذه المرأة فصلنا فى قضيتها ، وتركناها تنصرف .

ـــ فى الحال .

ودخلت الزهرة عليهما فى خفة الغزال وقد بدت زينتها ، فطغى جمالها الساحر ، فما ان وقع بصرهما عليها حتى اضطربا ، ولكنهما تجلدا ، وتحدثت وهما فى تكلفهما ، واصطناع الوقار ، ولكن ما دار الحديث بينهم حتى نسوا انفسهم ، فاقترب هاروت منها ، فشعر بنشوة ، وأخذ يدها بين يديه ، فغمره احساس لذيذ اطمأن اليه ، ودنا ماروت منهما ، ومس كتفها ، فخفق بدنه خفقات ، وسرى فيه خدر انشرح له صدره . ورفعت الكلفة ، وضحكت الزهرة ضحكات نمت عن قلب خلى طروب ، ودكت حصونهما . ولمحت المرأة ذلك البريق الذى ولد فى عيونهما ، فنفرت فى خفة ، وابتعدت فى دلال ، فقال هاروت :

ـــ الى أين ؟

ـــ الى المعبد ، هيا .

ـــ وماذا نفعل هناك ؟

ـــ نصلى للشمس .

ـ لا . لن يكون ذلك .

ـ اذن الى الغد .

ـ الى الغد .

وخرجت الزهرة وتركتهما لنفسيهما ، فهب ذلك الصوت الذى لا يرتفع مزمجرا الا بعد حلول البلاء ليعتب ويؤنب ، ويزجر ويخز النفس وخزات ، فقال هاروت فى التياع :

ـ قطعنا فى المعصية شوطا ، فحل علينا العذاب .

ـ هون عليك ، فما هذه النزوات الا السكين التى تخضد شوكة الزهر ، ان هى الا حطب الايمان ، تزيد حرارته وتؤجج ناره ، اننا نزداد خشوعا فى صلاتنا كلما هفونا هفوة ، لنكفر عن خطايانا .

ـ بالله دع عنك هذا ، اننا ننزلق فى طريق الدنس .

ـ لا تجزع ، واذكر رحمة ربك ، فقد وسعت رحمة ربك كل شىء .

وتصرم النهار وهما فريسة للوساوس والأفكار ، وانقضى شطر الليل وهما فى قلقهما واضطرابهما ، واخيرا مس النوم جفونهما ، فأراحهما من وخز الضمير وشهوات النفس وعذاب الفكر ، وتسللت اشعة الشمس الى الحجرة ، فهبا من نومهما وقد اشرقت نفوسهما ، فقد انجلت المشاعر عن صدريهما ، فعزما على ان يزجرا الزهرة اذا ما اقبلت وحاولت اغراءهما .

ودخلت عليهما ، فنسيا كل شىء الا ذلك الحسن ، وتضعضعت ارادتهما ، وانهارت مقاومتهما . وحلت عقدة اللسان ، فانساب الحديث عذبا شهيا ، وما ان انتهى حتى كان ثلاثتهم فى دار الزهرة .

وجاءت الزهرة بخمر ، وقدمتها الى الرجلين ، فرفضا

ان يمساها ، فأظهرت الاستياء ، فساءهما غضبها ، ولعبت الخمر برأسيهما ، فقاما الى الزهرة وقد التمعت عيونهما ببريق الرغبة والاشتهاء .

وسمع وقع أقدام فرفع هاروت وماروت راسيهما فزع . وبان في عيونهما الغضب ، وظهر عليهما الارتباك ، فقد راى الرجل ما يقترفان . لن يكتم الرجل ما رأى ، وستصبح فضيحتهما على كل لسان ، فلن يستطيعا بعد اليوم أن يمشيا بين الناس مرفوعي الرأس ، وفي مثل لمح البصر خطرت لهاروت فكرة . انه يستطيع أن يقتل الفضيحة في صدر ذلك المتطفل الدخيل ، فوثب عليه ، وقبض على رقبته ، وأخذ يحاول أن يكتم أنفاسه ، وهرع ماروت يعاون رفيقه ، وما تركاه حتى كان جسدا بلا حياة .

وطارت الخمر من راسيهما ، فأفاقا الى نفسيهما ، فشعرا برعب شديد ، ونزل بهما هم ثقيل ، فقد تلطخا في لحظة بكل الأوزار ، واقترفا ما يقترفه احقر انسان . وأحسا خزيا ، فطأطأ راسيهما ، وعزما على أن ينطلقا الى السماء ، ليكفرا عن خطاياهما ، ولكنهما احسا بأرجلهما قد شدت الى الأرض ، فنـدت منهما صرخات فـزع ورعب ، فقد ضاعا بين الأرض والسماء .

رابعـــة العـدوية

— ١ —

أنين خافت ينبعث فى جوف الليل البهيم ، وظلام تكاثفت طبقاته وهدوء شامل لا يعكره الا ترديد الأنين ، كانت امرأة فقيرة وحيدة تقاسى آلام الوضع ، وما كان يؤنســـها الا زوجها المهموم ، الذى قبع فى مكانه وقد غشيه قلق ووجوم ، وهتفت المرأة فى صوت خفيض :

— اسماعيل ، اوقد القنديل .

فقال الرجل فى نبرات تنم عن الأسف العميق :

— ليس فى الدار زيت .

— سل الجيران .

— لا أسأل أحدا ، لا أسأل الا الله .

وأطرق الرجل ، وزاد الأنين ، ثم وضعت المرأة طفـــلة ، ولولا الظلام لبان فى وجه اسماعيل الأسى والحزن العميق ، فله ثلاث بنات يقاسى ما يقاسى فى سبيل القيام بعبئهن ، فقد كان فى شظف من العيش شديد ، وها هى ذى الرابعة جاءته الليلة لتزيد فى أعبائه وتقصم ظهره .

وهدأت المرأة وضمت وليـــدتها اليها ، ثم اغفت ، فنـــام اسماعيل وهو حـــزين ، فرأى فيما يرى النائم رســـول الله

ﷺ قد أقبل عليه يواسـيه ويقول له : لا تحزن ، قد وهب الله لك أمة من عبـاده الصـالحين ، فقام اسماعيل من نومه منشرح الصدر ، هادىء النفس ، وانطلق الى الوليد ، ونظر الى وجهها الصغير ، فتحرك حنانه الدفين ، فابتسم وغمغم : ايه يا رابعة .

— ٢ —

خرج اسماعيل الى أسواق البصرة ، ليكدح فى سـبيل تحصيل قوت عياله ، وخرجت رابعة الى المسـجد الكبير ، لتندس فى الحلقات التى تعقد حـول صحابة الرسول وأكابر التابعين . كانت جارية صغيرة ، مرهفة الحس ، صافية الروح ، فكانت تشعر بخشوع ، اذا ما ذكرت قدرة الخالق ، وترتجف اذا ما ذكرت النار والعذاب والحساب .

وغابت الشمس ، وسجا الليل ، فقفل الناس الى دورهم عائدين ، وعاد اسماعيل مكدودا يحمـل بين يديه طعـاما ، وجلس مبهور النفس ، يلتقط أنفاسا متتابعات ، ولما استراح جىء بالطعام الذى كدح طوال يومه ليجنيه ، ووضـع على الأرض ، فتحلقوه وطفقوا يأكلون ، ولكن رابعة شردت بفكرها قليلا ، ثم قالت :

— يا أبت لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنيه .

فرفع الرجل رأسه ، وحدجها ببصره ، وقال :

— أرأيت ان لم نجد الا حراما ؟

فقالت فى ايمان عميق :

ـــ فنصبر فى الدنيا على الجوع ، خير من أن نصبر فى الآخرة على النار .

ودارت عجلة الزمن ، فطوت اسماعيل ، فحزنت رابعة لفقد أبيها ، وقد حل ذلك الحزن بنفس شفافة ، فجعلها تفكر فى الموت وما بعد الموت . وكانت ذكية الفؤاد تكثر من التأمل العلوى ، فراحت تبحث عن المعــرفة فى كل ما تقع عليــه عيناها .

وما كاد حزنها على أبيها يبلى حتى فجعت فى امهــا ، فرسخ فى نفسها أن هذه الدنيا ان هى الا دار زوال ، انها ممر الى مقر ، فالشقى من شغل بها عن أخراه ، فجعلت تبذل الجهد فى فطام جوارحها عن الشهوات .

ونزلت بالبصرة ضائقة ، وجاء القحط ، فتفرقت اخواتها بحثا عن الطعام ، وشغل الناس بأقواتهم ، ولكنها لم تشغل بشىء عن الله طرفة عين ، كانت تناجيه بالليل ، وتفكر فيــه بالنهار ، حتى صارت لا تحس توافه الاحساسات التى يحسها الناس ، فقد ذابت نفسها فى الله .

وخرجت تتأمل الكون ، فما سنح لبصرها صورة الا عبرت الى المصور ببصائرها ، وانطلقت نشوى ، فقد اصبحت من تنسم روح الوصال سكرى ، وأصبحت من ملاحظة سبحات الجلال حيرى ، وفيما هى فى هيامها ، لمحها رجل من تجار الرقيق ، فانقض عليها وخطفها ، فوقعت فى ذل الأسر ، وراحت تحمل صنوف العذاب فى صبر ، ولم تجأر بالشكوى فقد كانت فيها زراية لا تليق بها .

— ٣ —

وخرج الرجل بها الى ســـوق الرقيق ، فباعها فى قبيـلة بنى عدى بستة دراهم ، فاصبحت رابعة العدوية مـولاة آل عتيك ، وكان سيدها جاف الطبـع يســومها سوء العـذاب لأتفـه الأسـباب ، فما كانت تفكر فى ذلك الاضـطهاد ، فقد كانت مشغولة بحبها : لقد ملىء قلبها عشقا لله حتى فاض .

وفى يوم بعثهـا سـيدها لقضـاء حاجة له ، فانطلقت تهرول فى ازقة البصرة ، ولمحها احد المارة ، فأعجبه شبابها ، فرماها بنظرة منكرة ، فاضطربت وارتجفت ، وحاولت أن تزور عنه ، فزلت قدماها ، وسـقطت على الأرض ، فانكسرت ذراعها ، فغشى عليها ، لشدة ما أصابها . وبقيت فى غيبوبتها لحظات ، ولما استردت صوابها رفعت راسها خاشـعة الى السماء تناجى ربها : رباه قد انكسرت ذراعى ، وانا اعانى الالم واليتم ، وسوف اتحمل كل ذلك واصبر عليه ، ولكن عذابا اشد من هذا العذاب يؤلم روحى ، ويفكك أوصال الصبر فى نفسى ، منشـؤه ريب يدور فى خلدى ، وهل أنت راض عنى يا الهى ، هذا مـا اتوق الى معرفته .

واطرقت قليلا ، فغشيها امن ، ثم نهضت مطمئنة .

وفى ليلة من الليالى ارق سيدها ، فاذا بصوت يرن فى ارجاء داره ، فخـرج من غرفته يتلفت ويتلمس مبعث الصوت ، وقادته اذناه الى غرفة رابعة ، فظهـر فى وجهـه العجب ،

ان مولاته تعبد ربها خاشعة ، وقد انهمل دمعها غزيرا ، فوقف يرقبها مشدوها ، وخيل اليه أن قنديلا من نور يتألق فوق راسها ، فشعر برهبة ، وصك اذنيه قولها ، ربى انك تعلم ان اشد ما أتوق اليه هو عبادتك ، وتأدية ما لك من حقوق ، ولكنى اسيرة لا املك حريتى ، فلا سبيل الى تحقيق هذه الغاية ، فلتعذرنى يا الهى ، فاشتد وجيب قلب الرجل ، واحس وجلا يلفه ، فراح يفكر فى اطلاق سراح مولاته ، فما كان له ان يحبس صالحة وهبت نفسها لله .

وما انفلق عمود الصبح حتى بعث اليها ، فلما مثلت امامه قال لها :

ـ أنت حرة طليقة يا رابعة ، ولك الخيار فى ان تمكثى هنا أو تذهبى الى حيث تشائين :

فخرجت رابعة من دار آل عتيك تستنشق عبير الحرية ثانية ، وكان قلبها مفعما بالفرح ، فقد صار وقتها كله فى يدها ، فلن يشغلها عن الحبيب بعد اليوم شاغل .

وانطلقت الى الصحراء حيث الصفاء والهدوء ، وهامت تناجى ربها ، ولكنها عادت واتخذت لها خلوة متواضعة تخلو فيها بالحبيب . ظلت طوال الليل تصلى ، حتى اذا ما تبين الخيط الابيض من الخيط الأسود هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة ، ثم هبت مذعورة وهى تقول : يا نفس كم تنامين ؟ ! والى كم تنامين ؟ ! يوشك ان تنامى نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور . وانهمرت دموعها ، وجرت على خدها ، فرفعت رأسها ، ونظرت الى السماء من خلال الدموع وهتفت : يا الهى ، اتحرق بالنار قلبا يحبك ؟ !

واشتهر أمر رابعة فى البصرة ، فتطالت اليهـــا الاعناق ، وقصـــدها كبار العلمـــاء ، فوفد عليهـــا حسن البصرى التقى الشهير ،وشقيق البلخى الصوفى العظيم ، وســـفيان الثورى المجتهد الكبير ، والملك دينار حاكم الكرج ، وكانوا لا يجدون غضاضـة فى أن يأخذوا عنها أمر دينهم ، فقد أخذ كبار الصحابة عن عائشـة ثلثى الدين .

حمل الناس اليها هداياهم ، ولكنها كانت ترد عطايا الناس وهى تقول : ما لى بالدنيا حاجة .

وزارها أحد التجـــار يـــوما ، فوجـــدها تعيش فى دار متواضـــعة تحتاج الى اصـــلاح وتعمـــير ، فعرض عليها أن يعطيها دارا من دوره حتى يتم الاصلاح ، وما زال بهـــا حتى وافقت فانتقـــلت الى دار الرجـــل ، فوجـــدت جـــدرانا تزدهى بزينات تأخذ بالالباب ، وزخارف تســـبى العقـــول ، وساخت قـــدماها فى طنافس فاخـــرة ، ولمســـت الحـــرير الهفهاف ، فراحت تنقل عينيها فيما حـــولها وهى حيرى والهة ، انهـــا لم تر قبل اليـــوم مثل هذا النعـــيم ، فتأملته طـــويلا حتى شغلت به ، وسرعان ما عادت الى طبعها فأنكرت على نفسها ما هى فيه ، لقد شغلها العرض الزائل عن ذكر الحبيب ، فانقبضت واشاحت بوجهها عن التحف المتناثرة ، وخرجت من الدار ، فرارا من الفتنة التى كادت تستهويها .

ولمحها الرجل وهي خارجة ، فهرع اليها وقال :

— الى أين ؟

— الى داري .

— انتظري حتى يتم اصلاحها .

— لن أعود ثانية الى هذه الدار ، ولو مكثت بها لألتفت نفسي بهذه الأشياء الجميلة ، فيستهويني لطفها ، فيحول دون ما أنا صائرة اليه ، من الأخذ بأسباب الآخرة .

— ٥ —

وانطلقت رابعة شاردة اللب تفكر في الله ، وكانت زرية الحال ، فلقيها سفيان الثوري ، فقال لها : يا أم عمرو ، أرى حالا رثة ، فلو أتيت جارك يغير بعض ما ارى !

فقالت له في هدوء : والله اني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسأل من لا يملكها .

فأطرق سفيان ، ثم استأنف حديثه ، فتجاذبا أطرافه ، وفيما هو يتحدث قال : واحزناه !

فقالت في حزم : لا تكذب بل قل : واقلة حزني ! ولو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس .

فاربد وجهه ، ولكن سرعان ما عاد اليــه هدوءه ، فقال لها : كيف ايمانك يا رابعة ؟ وكم هــو مبلغ اعتقــادك بالله تعــالى ؟

— لا أعبد ربي خوفا من ناره ، أو شــوقا الى جنته ، ولكن أعبده لمحض المحبة والاخلاص .

ورفعت رأسها الى السماء ، وأخذت تناجي ربها ، الهى أحبك لوجهين : لحبى وهيامى بك ، ولأنك أهل للمحبة والعبادة ، فباشتياقى ومحبتى أذكر اسمك ، وأشغل بذاتك العلية ، وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة ، فلا يقف حمدك وثناؤك لأمر منهما ، وانما لك الشكر ، ومنك الفضل للحالين .

★ ★ ★

وكان أبو سليمان الهاشمي واليا على البصرة ، وكان يريد الزواج ، فبعث الى علماء البصرة يستشيرهم فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة ، فكتب اليها ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فان ملكى من غلة الدنيا فى كل يوم ثمانون الف درهم ، وليس يمضى الا القليل حتى أتمها مائة الف — ان شاء الله — وأنا أخطبك ، وقد بذلت لك من الصداق مائة ألف ، وأنا مصير اليك بعد أمثالها فأجيبينى .

وبلغتها رسالة الوالى ، فلم تجد هوى فى نفسها ، انه يعرض عليها الدنيا وما كانت الدنيا تهمها ، فراحت تكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فان هذا الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فاذا أتاك كتابى فهيىء زادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ، ولا تجعل وصيتك الى غيرك ، وصم دهرك واجعل الموت فطرك ، فما يسرنى أن الله عز وجل خولنى أضعاف ما خولك فشغلنى به عنه طرفة عين ، والسلام .

كانت رابعة صائمة ، فخلت الى ربها تدعوه وتناجيه ، وغربت الشمس وهى على هذه الحال منقطعة الى العبادة ، وعادت الى نفسها فغمغمت : الى متى تعذبين نفسك يا رابعة ، وتحملينها مشقة ليس بعدها مشقة ؟

وصك أذنيها طرق على الباب ، فذهبت فاذا برجل فى يده صحن من الطعام ، تركه ثم انصرف ، فتناولت الصحن ووضعته فى زاوية من الغرفة وتشاغلت باصلاح القنديل . فدخلت هرة فأكلت ما فى الصحن ، فلما عادت رابعة وجدت الصحن خاويا فقالت فى نفسها : لا بأس ، أفطر على الماء .

وذهبت لتعود بالماء فانطفأ القنديل ، فلم تطق احتمالا ، فقالت : اللهم لم هذا العذاب ؟

واحست ندما ، فأطرقت فى استحياء ، وسمعت صوتا آتيا من جوفها كأنما ينبعث من مكان سحيق يقول : لو شئت يا رابعة وهبنا لك ما فى الدنيا ، ومحونا ما فى قلبك من نار العشق ، لأن قلبا مشغولا بحب الله لا يشغل بحب الدنيا .

أسفت رابعة أشد الأسف لما بدر منها ، فوطنت العزم على الا تعود فتتمنى سعادة الدنيا .

واقبل الملك دينار ، فوجدها على حصيرة بالية ، وموضع الوسادة قطعة من الآجر ، وتشرب من اناء مكسور ، فقال لها :

ـــ اعرف يا أم الخير اصحابا لى من ذوى اليسار ، فاسمحى لى أن اذهب اليهم ، اطلب اليهم معـــونتهم فى أمر رفاهيتـك وراحتك .

كان الملك دينار يريد ان يستأذنها فى أن يأتيها ببعض حاجات ، فهو يعلم انها ترد ما يعطيها الناس ، ولكنها كعادتها لم تأذن له ، وقالت :

ـــ ان الله رازق الأغنياء يهون على الفقراء ايضا حاجتهم ، فما علينا الا الصبر والقناعة .

— ٧ —

واقبل حسن البصرى ليزور رابعة كعادته ، فرأى على بابها تاجرا يبدو عليه التردد ، فسأله من حاجته ، فقـــال الرجل :

ـــ احضرت كيسا من الذهب لرابعة ، وانني مضـــطرب لا أدرى أتقبله أم ترفضـــه ؟ فادخل بالله وانقذنى من هـــذا الاضطراب .

فدخل حسن واخبرها خبر الرجل . فقالت :

ـــ الا تعلم يا حسن أن الله يرزق عباده ، حتى الذين هم عنه لاهون ، فما بالك بمن يكن فى سويداء قلبـــه محبة يقف دونها الحصر لفاطر السموات عز وجل !

انني يا حسن لم أتوجه الى غير الله منذ اليوم الذى أدركت فيه قدرته الالهية . كيف أستطيع قبول هدية هذا التاجر وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أو من حرام ؟

وماتت زوجة حسن البصرى ، فطلب رابعة للزواج ، فلم تقبل ، فجاء يكرر طلبه ، فقالت له :

ــ اتزوجك ان اجبتنى على ما يشغل خاطرى .
ــ قولى ..
ــ هل أموت وأنا على ايمان كامل ؟
ــ علم ذلك عند ربى .
ــ هل أنال صحيفتى بيدى اليمنى يوم الحساب ؟
فسكت قليلا ، ثم قال :
ــ علم ذلك عند ربى .
ــ مع أى فريق أكون يوم الحشر ، أمع الذاهبين الى الجنة أم مع الهالكين فى جهنم ؟
ــ علم ذلك عند ربى .
وساد بينهما صمت ، ثم قالت :
ــ فاذا كنت مشغولة اللب بأمثال هذه الأمور ، فكيف أبحث عن الزواج ؟ !
فحدجها ببصره وقال :
ــ أليس لك رغبة فى الزواج ابدا ؟
فقال فى هدوء :
ــ انما يتزوج من يملك ارادة نفسه ، أما أنا فليس لى ارادة ، ان أنا الا عبدة المولى عز وجل .
وانصرف حسن البصرى ، وجن الليل ، ونام الكون ، فقامت رابعة البتول على سطح لها ، فنادت :
ــ الا هدأت الأصوات ، وسكنت الحركات ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وقد خلوت بك يأيها المحبوب ، فاجعل خلوتى منك فى هذه الليلة عتقى من النار .

أرض الله

انساب فى طرقات المدينة أشعث أغبر ، وقد طال شعره ، واسترسلت لحيته ، وبرقت عيناه ، وبان فى وجهه الهم الدفين ، وراح يدق صدره بقبضة يده ، ويصيح فى اسى عميق :

— واشقائى ، واعذابى ، حطمت سعدى بجهلى ، وعدت الى الشقاء بعد النعيم .

وراح الناس ينظرون اليه فى رثاء فقد كانوا يعرفونه . وكانوا يحبونه ، كان عاقلا رزينا ، فاذا بهم يصبحون ذات يوم ، فيجدونه ينطلق فى مسالك المدينة شارد اللب ، شاخص البصر ، يهمهم فى جنون .

وأصبحوا فى حيرة ، فهم لا يدرون ما حل به ، وراحوا يتهامسون عما جرى له ، ويقولون ان طول قيامه ، وكثرة عبادته ، وقلة نومه ، اطاشت عقله ، وذهبت بلبه ، وجعلته فى ذهول ، أصبح مجذوبا يهذى ، يبعثر الكلام دون فكر أو تدبير .

وساء واحدا من أصحابه ما أصابه ، فعزم على أن يحدثه ، وعلى أن يلتمس منه أن يلزم داره ، حتى يريح أعصابه ، ويعود الصفاء الى ذهنه المكدود ، فلما لمحه قادما يصرخ فى لوعة ووله ، ذهب اليه ، وقال له فى توسل :

— ارح نفسك .

فقال فى يأس مرير :

— دعنى فى شقائى .

فمد يده وجذبه فى رقة ، وقال له :

— تعال معى ، وهدىء من روعك .

— هيهات أن يهدأ روعى ، أنا الطريد ، أنا المعذب . يا لشقائى .

— ما هذا الذى تقول ؟

— عدت الى الجحيم ، عدت الى البؤس المقيم ، وولت ايام الهناءة كحلم قصير .

— ما هذا الجزع ؟

— لو رأيت ما رأيت ، وطردت من النعيم كما طردت ، لكان جزعك أشد من جزعى .

— وماذا رأيت ؟

— دنيا السعادة ، عشت فيها أرشف كئوس الهناءة ، حتى ارتكبت الخطيئة الكبرى ، فخرجت منها مذموما مدحورا .

فهز الصديق رأسه فى حزن وقال :

— آه .

فقال الرجل :

— بالله لا تسىء الظن بى ، فانى لم أجن بعد .

— لا أستطيع أن أفهم ما تقول ؟

— وكيف تفهم اذا كنت لم تر ما رأيت ، لو أنك تركت دنياك هذه وانتقلت الى الدنيا السعيدة التى عشت فيها ، لما لمتنى على ما أنا فيه .

ـ وأين دنياك هذه ؟

ـ أتعرف ذلك الجامع المهجور الكائن فى طرف المدينة الشرقى ؟

ـ أعرفه .

ـ اذهب اليه ، واصعد مئذنته ، ستجد بها نافذة ، انظر منها تر عالما عجيبا .

ورمق صديقه ، فالفاه يرنو اليه فى انكار ، لم يكن يصدق ما يقوله ، فانطلق فى طريقه يدق صدره بقبضة يده ويصيح :

ـ واشقائى ، واعذابى ! حطمت سعدى بجهلى ، وعدت الى الشقاء بعد النعيم .

ووقف صديقه يرقبه حتى اختفى عن عينيه ، فعاد الى داره مطرقا يلفه حزن عميق ، وخلا بنفسه وجعل يفكر فى صديقه الذى أصابه مس من الجنون ، فانقبض وزاد أساه ، واحتلت ذهنه صورته وقد اتسعت عيناه وهو يقول : « اتعرف ذلك الجامع المهجور الكائن فى طرف المدينة الشرقى ؟ اذهب اليه ، واصعد مئذنته ، وستجد بها نافذة ، انظر منها تر عالما عجيبا » .

وخطر له أن يذهب الى ذلك الجامع المهجور ، وسخر من ذلك الخاطر . ولكنه ظل يلح عليه ويضايقه ، ويحتل اقطار رأسه ، فلم ير بدآ من أن ينهض وينطلق اليه ليستريح من ذلك الخاطر المجنون ، سار كأن قوة خفية تدفعه حتى اذا بلغ الجامع المنشود أحس شعورا غريبا يستولى عليه ، وسرت فيه تلك المشاعر التى تسرى فيمن يكون مقبلا على عمل خطير .

وعجب من تلك الاحساسات التى اكتنفته ، فتمسك

نفسه ، واتجه الى المئذنة وراح يصعد فى درجها كدوامة تدور . حتى اذا خرج الى سطحها العلوى الذى يتحلقها ، ولفح وجهه الهواء البارد أحس رأسه يدور ، وتلفت بعيون زائغة ، فرأى شباكا فى الجدار ، فخفق قلبه واضطرب ، فما كان فى جدران المآذن شبابيك .

واتجه اليه ، واطل منه ، فبان فى وجهه الدهش ، وكادت المفاجأة تذهله عما حسوله ، واحس قواه تخور ، ولكنه امسك بالنافذة ، وظل ينظر وهو مأخوذ . رأى دنيا واسعة عجيبة يتألق فيها نور هادىء لطيف ، وقد امتدت الدور الأنيقة على نهر رقراق ، يحيط بها حدائق زاهرة بهيجة تسر العيون ، وتاخذ بالالباب ، ورأى فى ناحية من المدينة سوقا نسقت تنسيقا بديعا ، امتلأت حوانيتها بالخيرات ، واناسا يغدون ويروحون فى طرقاتها ، يلوح عليهم الدعة والاطمئنان ، وتعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، فهفت نفسه الى ذلك العالم الفاتن الجذاب .

ورفع رأسه ، فرأى حبلا قريبا يتدلى فى الهواء ، فخطر له ان يستعين به على الهبوط ليجوس خلال تلك الديار ، فتسلق النافذة ، ومد يده وامسك بالحبل ثم راح يتدلى فى حذر ، وما هى الا دقائق حتى الفى نفسه يسعى فى المدينة ويتلفت فى دهش واعجاب .

كان الجميع منهمكين فى اعمالهم ، فراح يتفرس فيهم ، فراعه ذلك الصفاء الرائع المتألق فى عيونهم ، ومسحة الطمأنينة التى تكسو وجوههم ، وذلك البشر المترقرق فى محياهم ، ولاحوا لعينيه كأطياف شفافة نقية ، لا يشدها الى الأرض خبائث النفوس .

وانطلق كالمأخوذ ، وقد أدهشـــته تلك الســـكينة النازلة بالقلوب ، وحيره أمر القوم ، فلم يجـــد لذلك النقاء من تأويل . ورأى اثنين يتناجيان ، فاسترق الســـمع ، فـــزادت دهشته ، وزاد عجبه ، كان حديثا لطيفا ، كله ود واخاء ، لا لغـــو فيـــه ولا تأثيم . قلوب فطرت على الوداد ، وصـــدور نقية أنقى من البلور ..

وبلغ السوق فراح يتلفت فى ذهول ، كانت البضـائع منمقة تنميقا بديعا ، يأخذ بالألباب ، وكانت فى أمـــاكن مفتـــوحة لا نوافذ فيها ولا أبواب ، وشعر بالجوع ، فذهب الى مخـــبز ، ومد يده فى جيبه ، فلم يجد معه نقودا ، فهم أن يدور على عقبيه ، وأن يعود من حيث جاء ، ولكن رجلا أقبل على الخباز وقال له :

ـــ أعطنى رغيفين على بركة الله .

فناوله الخباز الرغيفين بوجه سمح كريم وقال له :

ـــ خذهما على بركة الله .

فاتسعت حدقتا الوافد الغـــريب ، وبانت فى وجهه الحيرة والعجب ، لم يفهم مما جرى أمامه شيئا ، وخطر له أن ينطلق وراء ذلك الرجل الذى أخذ الرغيفين ، ليرى ما يكون ، فسار خلفه حتى اذا بلغ سماكا ، وقف على قرب منه ، وأرهف سمعه ، فسمعه يقول :

ـــ أعطنى سمكا على بركة الله .

فناوله السماك ما طـــلب مشرق الوجه ، ففغر الغـــريب فاه من الدهشة ، وخطر له أن يفعـــل ما فعله ذلك الرجل ، فعاد الى المخبز ، واجف القلب ، يحس رهبـــة وقلقا ، وقال

فى نبرات خافتة ، كأنها آتية من أغوار بئر عميقة :

ــ اعطنى رغيفا على بركة الله .

فناوله الرجل الرغيف ، والابتسامة الحلوة ترف على شفتيه ، فأخذه وسار ، وهو حائر لا يدرى شيئا ، ثم اتجه الى جزار ، وقال له :

ــ أعطنى رطل لحم على بركة الله .

فأعطاه ما طلب ، فذهب الى فرن قريب وقال :

ــ اشو لى هذا على بركة الله .

وجلس ينتظر ، وحاول ان يفكر فيما رأى ، ولكن الجوع استبد به ، وعطل تفكيره ، فجعل يرنو الى ما حوله وهو فى شبه غيبوبة ، لا يدرى أنائم هو ام يقظان ! وقدم اليه الفران اللحم المشوى ، فأخذه شاكرا ، وذهب الى حديقة وارفة الظلال ، تطل على نهر المدينة الصافى الذى ينساب فى وقار ، وقعد يلتهم طعامه . حتى اذا سكت صراخ بطنه ، جعل يتلفت حوله فى عجب ، لم يكن فى الحديقة البديعة غيره على الرغم من جمال الجو وروعة المناظر الخلابة ، واعمل فكره ، ليعرف لذلك سببا ، ولكنه لم يهتد الى شىء .

وتمدد على الخضرة وشخص الى السماء ، وراح يفكر فيما مر عليه ، فتكشف لعينيه بعض ما كان مغلقا عليه ، اهتدى الى انه هبط الى مدينة سعيدة ، لا تعرف النقود ، ولا المصارف ، ولا الصكوك ، ولا الديون ، ولا الهموم ، فعاش اهلها سعداء ، لا يتعاملون الا ببركة الله .

وظل فى رقدته ، واسترسل فى تفكيره ، فأحس رغبة فى العودة الى المدينة السعيدة لينعم بما فيها من عجائب وأسرار ، فنهض وغادر الحديقة الفتانة ، وراح يضرب فى مسالك المدينة ، وقد نزلت بقلبه سكينة وأمن . وانساب صوت المؤذن عذبا حنونا ، يهز المشاعر ويعبث بالقلوب ، يؤذن بالعصر ، فغادر الناس المتاجر والأعمال ، واقبلوا على المسجد الكبير خاشعين ، يلوح فى وجوههم الايمان العميق . تركوا البضائع والعروض فى أماكنها المفتوحة ، دون أن يغلقوا دونها الأبواب ، فما كانت تجارتهم ؟ انها أموال الله ، تركوها فى حراسة الله .

واقفرت الطرقات من الناس ، ولم يبق بها غيره ، فسار الى المسجد الكبير ، وراح يصلى العصر فى اطمئنان غريب ، كان كل ما حوله يخشع القلوب ، ويئد وساوس الصدور ، ولأول مرة فى حياته يحس أن روحه صفت ، وانها حلقت وهامت ، حتى اتصلت بملكوت السماء ، وامتلأت بالنور .

وقضيت الصلاة ، فارتفعت الأصوات تسبح بحمد الله الرازق الوهاب ، ثم نهض الناس ، وراحوا يغادرون المسجد الى دورهم ، أو الى الحدائق الممتدة على شاطىء النهر الصافى ، الذى استمد صفاءه من صفاء النفوس ، كانت صلاة العصر ايذانا بانتهاء ساعات العمل ، وابتداء ساعات الدعة والهدوء .

وخرج من المسجد ، فالفى فتيات رائعات الحسن فى ثياب بيض ، تحلين بأساور من الفل ، وقلائد من الورود .

كانت فتنتهن تبهر الأبصار ، وتجعل القلوب تخفق فى الصدور ، فنظر اليهن فى ذهول ، فألفى كلا منهن تحمل ابريقا من بلور ، به ماء زلال سائغ للشاربين ، فأحس رغبة فى الشرب ، فاتجه الى فتاة كأنها من الحور العين ، يشع من عينيها بريق فاتن ، اخترق صدره ، ونزل بسويداء قلبه ، فرنا اليها فى اعجاب ، فغضت من بصرها فى حياء ، فمد يده وتناول الابريق ، فاحمرت وجنتاها ، وهزها السرور ، وشرب منه وأعاده اليها شاكرا ، ودار على عقبيه لينصرف ، فاقترب منه رجل ، وهمس فى رقة :

— لعلك غريب ؟

— نعم .

— انها اصبحت زوجك ؟

فاتسعت حدقتاه ، وقال فى دهش :

— زوجى ؟ !

— اجل زوجك ، انهن فتيات حان اوان زواجهن ، يحملن ابريق السعادة على باب الله ، فى انتظار الزوج السعيد ، فمن يشرب من يد احداهن كان ذلك اختيارا لها وقبولا منه ، لتصبح زوجته .

فقال فى صوت خافت :

— وما مهرها ؟

— حسن معاشرتها ، خذها على بركة الله .

فلفته سعادة عارمة ، وسرت فى صدره نشوة ، ومد يده ووضعها فى يدها ، وسار وهو مسرور ، لا يدرى أعلى الأرض يمشى أم فى السماء يطير . انطلقا الى شاطىء النهر .

وراحا ينعمان بمشاهدة الغروب ، وفي صدريهما نشوة ، وفي قلبيهما حب .

وجاء الليل ، وأرخى ستائره السود ، فتحرك حبه ، وطغى وجده ، فلف ذراعه حولها ، وضمها اليه ، وراح يلثمها في جنون . وتصرم الوقت وهو لا يدري ما يفعل . ولا الى أين يتوجه ، فالتفت اليها وقال :

ـ الى أين نذهب انبيت ليلتنا ؟

ـ تعال .

وسارت وسار الى جوارها ، حتى بلغا دورا تحيط بها حدائق زهراء ، ينبعث منها ضوء شاعري خافت ، يحرك المشاعر في الصدور . ووقفا أمام دار جميلة ، والتفتت اليه ، وقالت وقد اشرق وجهها بابتسامة عذبة :

ـ هذه دارنا .

ـ دارنا ؟

ـ أجل ، كل هذه الدور أعدت للمتزوجين .

وتقدما حتى اذا ما اقتربا من باب الدار ، سمعا صوتا عذبا يهمس :

ـ ادخلا على بركة الله .

فالتفتا ، فألفيا رجلا يبتسم لهما ابتسامة حلوة ، كادت تنير لهما الطريق .

ودخلا الدار ، فاذا فيها ما يحتاج اليه الزوجان من متاع . فمدأ يتناجيان ويتعانقان ، فغمرته السعادة ، وأحس احساس النائم الغارق في حلم لذيذ .

وانقضت الليلة كأحلى ما تكون ليلة ، واشرقت الشمس ،

وطلع النهار ، وهو راقد في سريره نشوان ، فدنت منه ، فجذبها اليه في حنان ، فدفعته في رقة ، وقالت :

ــ هيا ، انهض .

ــ لماذا ؟

ــ لتذهب الى عملك .

ــ لن أخرج اليوم .

ــ بل لابد ان تخرج .

ــ لم ؟

ــ على من يعيش في أرض الله أن يعمل .

ــ لن يضير المدينة السعيدة شيئا لو لم أعمل اليوم .

ــ لو أن كل انسان قال ما تقول لتقوضت مدينتنا ، ولا ندك صرح هنائنا .

ــ يوم واحد الى جوارك ، ثم أذهب الى العمل .

ــ لا . على من يعيش في أرض الله أن يعمل من الصباح حتى العصر ، في تقديم خيرات الله ، الى عباد الله ، ثم يتمتع بعد ذلك بما يشاء .

ــ ماذا أعمل ؟

ــ أى شيء يعود على الجماعة بالخير ، ازرع الأرض ... احصد الحب .. انسج الثياب .. اصنع ما تشاء لتمكن الناس من أن يأكلوا من رزق ربهم ، وأن يعيشوا في سعادة وأمان .

وترك فراشه وخرج ، وفيما هو في طريقه ، راح يفكر فيما يفعله ، تذكر انه كان تاجرا ماهرا يبيع الناس اشياء بأبوظ الاثمان ، ليجنى الأرباح ، ويكدس الأموال ، ولكن

هنا لا بيع ولا شراء ، ولا أموال ، ولا اطماع . الكل يعتمدون على الله ، ويعيشون على بركة الله . وتذكر انه كلما مر على صانع الزجاج اشتهى ان ينفخ الزجاج مثله ، وأن يصنع الأوانى والقوارير والأكواب ، فعزم على أن يعمل زجاجا . وأستمر فى سيره ، ووقعت عيناه على قطعة كبيرة من الذهب ملقاة فى الطريق ، فخفق قلبه ، واتجه اليها وفى قلبه غبطة ، وتناولها هيمان ، ولكن لم يطل سعده ، فقد تذكر أن لا قيمة للذهب فى أرض الله ، فالقى بها بعيدا دون اكتراث ، كما يلقى المارة بحجر يصادفونه فى عرض الطريق .

ومرت الأيام ، فصفت نفسه ، وشفت روحه ، وانشرح صدره ، ولكن لم يبلغ ما بلغه أهل المدينة السعيدة من ايمان عميق . واعتاد أن يبعث الى زوجه زاد يومها عقب خروجه الى عمله ، وما كان يبعث لها الا ما يكفيهما ، وفى يوم من الأيام بينما كان عائدا الى داره ، رأى سمكا طيبا فاشتهته نفسه ، فطلب من السماك أن يعطيه بعضا منه على بركة الله ، فأعطاه ما طلب .

ودخل على زوجه ، ودفع السمك اليها ، فقالت له فى انكار :

ـ ما هذا ؟

ـ سمك طيب .

ـ ولماذا أحضرته ؟

ـ اشتهته نفسى .

ـــ ولكن عندنا قوت يومنا ، فما نفعل به ؟

ـــ نبقيه الى الغد .

فاربد وجهها ، وبان فيه الفزع ، وصاحت فى لوعة :

ـــ الغد ؟ ! يا لحظى العاثر ، انتهت أيام هنائى .

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ لقد جئت أمر ادا .

ـــ ماذا فعلت ؟

ـــ فكرت فى الغد ، واختزنت طيبات الله ، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده .

ـــ أكفر عن ذنبى .

ـــ هيهات .. ان معصيتك زلزلت جنبات مدينتنا السعيدة ، أغضبت الخالق الذى نعتمد عليه ، لقد جرح تفكيرك فى الغد ايماننا العميق بالله ، واتكالنا عليه .

ودنا منها مضطربا ، وقال فى صوت كفحيح الأفعى :

ـــ وماذا افعل ؟

ـــ لا تستطيع ان تفعل شيئا ، انتهى كل شيء ، وقعت فى الخطيئة الكبرى ، وحق عليك العذاب المهين .

ـــ اى عذاب ؟

ـــ العذاب الذى كنت فيه ، ستخرج من أرض الله مذموما مدحورا .

فغطى وجهه براحتيه ، وراح يصيح فى جزع شديد :

ـــ ويل لى .. ويل لى !

وأحس رأسه يدور ، وشعر بالأرض تميد تحت قدميه ،

وبدوامة من الريح تصفر فى اذنيه ، وظل فى شبه غيبوبة ، حتى اذا افاق الى نفســـه رفع راحتيه عن وجهـــه ، فوجد نفسه فوق مئذنة الجامع المهجور ، وفى صدره حيرة وقلق ، وتذكر ما جـــرى له كما يتـــذكر حلما أفاق منه ، فهـــرع الى نافذة المئذنة ، التى تطـــل على المدينة العجيبة ، ولكنـــه لم يجد نافذة ، كانت المئذنة صـــماء كجميـــع المآذن ، فراح يلف حولهـــا يبحث وينقب فى جنون ، ثم نزل فى الـــدرج يصرخ ويصيح ، حتى اذا بلغ اول الطريق ، اندفع الى المدينة ، يبكى وينتحب ، ويدق صدره فى جزع شديد ، حزنا على الفردوس المفقود .

وادى الأرزاق

اطرق يفكر مهموما ، فعلا وجهه عبوس ، وسرى فى صدره تبرم وضيق ، انه استورد بضاعة كان يطمع فى أن يجنى من ورائها ارباحا وفيرة ، فلما باعهسا لم يكن ربحه يتفق وما كان يحلم به ، وزاد فى ضيقه أن هذه ليست أول مرة تتقوض فيها آماله ، ويخيب تقديره ، اخفق مرات فى أن يحقق الأرباح التى كانت تتراءى له فى خياله قبل أن يقدم على صفقاته .

ولج فى التفكير ، فرأى رفقاءه الذين ربحوا أموالا كثيرة وما كانوا أكثر منه خبرة ، أو ألم منه بأسرار السوق ، فربا حزنه ، وزاد ألمه ، واحس طعم الصاب فى فيه ، ودخلت عليه أمه وكانت عجوزا نالت منها السنون ، وجلست اليه ، فأنكرت منه عبوسه ، وحزرت سبب حزنه ، فقد كانت تعلم سبب تبرمه وضيقه ، فأحست يدا قوية تهصر قلبها ، وقالت له تواسيه ، فى صوت خافت حنون :

— روح عن نفسك يا بنى ، لا طائل من استسلامك لأفكارك ، فلن تجنى الا الهموم .

فرفع وجهه العبوس وغمغم :

— ما أمر الفشل !

فقالت أمه فى ايمان :

ـــ بعد الضيق الفرج ، واننا ولله الحمد فى سعة .

فقال فى حنق :

ـــ لست أدرى لماذا افشل انا وينجح من دونى ؟ لا .

ـــ أرزاق .

فقال فى ثورة :

ـــ اية ارزاق ؟

ـــ أرزاق تهبط من السماء يا بنى .

وهم بأن ينفجر فى ثورته ، ولكنه كبح جماح نفسه ، ونظر الى العجوز المؤمنة من بين اهدابه ، ورفت على شفتيه ابتسامة سخرية ، فما كان من المؤمنين بالأرزاق التى تنزل من السماء . ولاذ بالصمت العميق .

★ ★ ★

وفكر ، وامعن فى التفكير ، حتى اذا ما خيل اليه انه اهتدى الى الخطأ الذى يضيع بسببه ما يرجوه من ارباح : اتخذ كل ما فى مقدوره لعلاج ذلك الخطأ ، ثم اقدم على صفقة جديدة ، وقد تجددت ثقته فى أنه فى هذه المرة سيحقق ما يرتجيه من أرباح .

ومرت الأيام والأمل يداعبه ، والأرباح الوفيرة تتراءى له ، حتى اذا تمت الصفقة : عاد اليه عبوسة ، فقد انتهت على غير ما يشتهى ، ولم يحقق ما كان يرجوه من مكاسب ، وانزوى فى غرفته مطأطىء الراس مهموما ، واقبلت عليه أمه العجوز تخفف عنه وتواسيه ، وراحت تقول :

ـــ لا يجنى الانسان الا ما كتب له .

فقال في مرارة :

ـــ اكتب على أن اجد الاشقى ؟

ـــ اى شقاء ؟ اننا في سعادة ، ادع الله ان يديمها علينا .

ـــ لعلك تحسبين هذه الخيبة المتلاحقة سعادة !

ـــ اننا بخير يا بنى ، أرح نفسك التى تضنيها بالباطل .

ـــ ومن أين الراحة اذا كان الاخفاق حليفنا !

ـــ من أنفسنا . لو انك رضت نفسك على الرضا لعشت هانئا سعيدا .

ـــ كيف ارضى وانا أرى من هم دونى ينالون ما يبغون ، وانا أشقى باجتهادى ؟

ـــ قسمة .

ـــ اصبح رفقائى يملكـــون الدور والقصـــور ، والشركات والمنشآت ، وانا لم أحقق حلما واحدا من احلامى .

ـــ ارزاق .

فقال في ثورة ساخرة :

ـــ لعلك تقصدين أرزاقا تهبط من السماء !

فقالت في ايمان :

ـــ أجل يا بنى ، ارزاق تهبط من السماء ، لو رضيت بما قسم لك كنت اغنى الناس .

ـــ بل اشقى الناس ، هذه القناعة التى تبذرونها في نفوسنا هى بلوانا ، انها تورثنا الخنوع والاستسلام .

ـــ انها البلسم الشافى ، الدرع الواقية التى تقابل بها القدر الجبار .

ـــ درع صـــنعت من أوهام ، لو أعـــرت نصـــيحتك أذنا

مصفية لنمت في فـــراشي ، ورحت أرقب رزقي المنهمـــر من السـماء .

ـــ لا يا بني ، ما قلت لك اقعد عن طلب الرزق .

ـــ فماذا تقولين اذن ؟

ـــ اعمل ، ورض نفســـك على ان تجـد السعادة في عملك ، وعلى الرضا بما تجري به الاقدار ، فلست بقادر على تغيير ما كان .

فقال في استكبار :

ـــ اني قادر على ما اريد .

ـــ كل ما تقدر عليه هو الاسترسال في التفكير ، والاسراف في الحزن .

ـــ اني قادر على ان اصنع نفسي بيدي .

ـــ هيهات ، اجمع مواهبك ، واحشد قواك ، وافعل كل ما في طاقتك لتغيير ما كان .

ـــ سأغير ما سيكون ، سأخلق مستقبلي بعزمي ، واصنعه كيف اشاء .

ـــ والله لن تجني الا ما وعدت به في السماء .

فقال في تبرم :

ـــ ولن اومن بهذا حتى اعـــرج الى الســـماء لأرى منبع الأرزاق .



ودخل فراشه ، واسلم جنبه للرقاد ، واسبل عينيه ، ولكن النوم جافاه ، كان ذهنه يفكر فيما جرى بينه وبين أمه من حوار ، وفكر في الأرزاق التى تهبط من السماء ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة ، وان حسد فى قرارة نفسه امه على ايمانها الذى يمدها بالراحة والاطمئنان ، وظل فريسة لأفكاره ، حتى غلبه النوم فنام .

راح فى سبات ، فرأى نفسه فيما يرى النائم يسير فى السماء ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، واذا بملك كريم لاح لعينيه ، وقال فى رقة :

— عم تبحث هنا ؟

— عن رزقى .

فأشار الملك بأصبعه بعيدا وقال :

— هناك فى وادى الأرزاق .

فانطلق يهرول ، ثم اخذ يعدو حتى اشرف على واد هائل ، لا يبلغ البصر مداه ، تفجرت فيه الأرزاق كينابيع الماء ، وكانت الينابيع تتفاوت فى قوة اندفاعها ، فبينما بعضها ينبثق فى غزارة ، اذا بعضها الاخر تسيل منه الارزاق كرذاذ المساء .

ووقف ينظر خافق القلب ، مكروب الأنفاس ، وقد لاح فى وجهه الدهش ، وبقى فى مكانه لا يريم قلقا مضطربا ، حتى اذا هدأ روعه ، انحدر كالعاصفة الى وادى الأرزاق ، وقد ارهفت منه الحواس ، وجعل يجوس خلال الينابيع المتفجرة ، ينقب عن رزقه فى جنون .

جعل يعدو هنا وهناك ، يبحث وينقب ، وقد علاه البهر . واخيرا وقف أمام ينبوع أوحى اليه انه رزقه ، فنظر اليه فى تبرم وضيق ، كان الرزق يتدفق منه فى اعتدال ، فما كان كالأرزاق المنبثقة فى قوة وغزارة ؛ وما كان كالأرزاق الواهنة التى تسيل قطرات .

ومد بصره الى الينابيع الفوارة ، وظل يديم النظر اليها . ولم يعر الينابيع الضحلة أدنى التفات ، فأحس كأن عقدة عقدت فى صدره فضيقته ، وأبخرة الحسد تنتشر فى جوفه فتضنيه ، فراح صدره يرتفع وينخفض فى حنق شديد .

وتمنى ان يجد فى هذا الوادى الهائل العجيب قدوما ومسمارا يوسع بهما الثقب الذى يتدفق منه رزقه . وما ان خطرت هذه الأمنية على باله ، حتى ألفى القدوم والمسمار بين يديه ، فأثلج صدره ، وهرع الى رزقه نشوان ، فما هى الا دقات حتى يتفجر رزقه تفجرا يفوق كل ما فى وادى الأرزاق .

ووضع المسمار فى ثقب الينبوع ، ثم طفق يدق عليه بالقدوم فى قوة وعزم ؛ وتفصد منه العرق ، ونال منه التعب ، ولكنه لم يلتفت الى تعبه ، فما هى الا دقات أخرى حتى ينتهى كل شىء . واستجمع قواه ، ودق على المسمار دقة هائلة ، فكسر المسمار فى الثقب ، فجعل يحاول جاهدا أن يخرج المسمار المكسور وهو مرعوب ، وأخفقت محاولاته ، فأحس خوفا شديدا ، وقلقا يلفه ، ورهبة تستولى عليه ، فقد حبس رزقه بيده ، ولم يعد له ينبوع فى وادى الأرزاق ، وخطر له ان الرزق لا ينحبس الا اذا مات صاحبه ، فأقنع نفسه أنه قد مات .

وهب من نومه مذعوراً ، وقد سرت فى بدنه رعـــدة ، ودب الرعب فى جسمه دبيب النمل ، وجلس فى فراشه يرتجف من الخوف ، يحس جفافا فى حلقه ، وراح يمرر يده على وجهه ، ثم يتحسس جسمه ، ليقتنع نفسه انه ما زال حيا يرزق ، واخذت رهبته تنقشع رويدا رويدا ، حتى اذا ما اطمأن قليلا ، راح يفكر فى حلمه ، فعادت اليه رهبته ، وفكر فيما يفعله لو حبس رزقه عنه ، فربا خوفه ، وزاد اضطرابه ، ونهض من فراشه يجوس خلال داره ليهدىء قلبه الثائر المرعوب .

راح يتلفت حوله فرأى بديع الرياش الذى اثث به داره ، ولمح متعدداً وثيراً ، فاتجه اليه ، وغاص فيه ، وراح خوفه ينقشع ، حتى اذا هدأت نفسه ، وزال خوفه ، فكر فى أمره ، فشعر لأول مرة بأنه سعيد ، وأنه فى نعيم .

الفهرست

خطيئـــة ودم ٥
ابن الذبيحين ٢٥
مـــوسى ٤٩
داود ٩٣
ســـليمان وبلقيس ١٣٤
اســــتر ١٤٦
ســـــالومى ١٧٨
نداء من الســـماء ١٩٥
هـــاروت وماروت ٢٠٧
رابعة العدوية ٢٢٢
ارض الله ٢٣٣
وادى الأرزاق ٢٤٦

مؤلفات

عبد الحميد جوده السحار

		الطبعة الاولى
احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
محمد رسول الله (مترجمة)		١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
الدرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩

الطبعة الأولى

القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله وإسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٤
ذكريات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٤
كشك الموسيقى		١٩٨٣
خفقات قلب		١٩٨٣
صور وذكريات		١٩٨٣
الاسراء والمعراج		١٩٨٣
عدو البشر (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٤
النمـــــر (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٤
الله أكبر (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٤
أبطال الجزيرة الخضراء		١٩٨٥
ثلاثة رجال فى حياتها		١٩٨٥
مسجد الرسول		١٩٨٥
ذات العماد (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٦
آدم الى الأبد (سيناريو وحوار)		ابريل سنة ١٩٨٦

القصص الدينى

(للأطفـــــال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٠ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

في عشرين جزءا

١ ـ ابراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـ بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧ ـ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨ ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـ دعوة ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١ ـ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ـ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨ ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه